

3

روايات مصرية الجيب

حرب الجوasisيس



و. نبيل فاروق

Looloo

www.dvd4arab.com

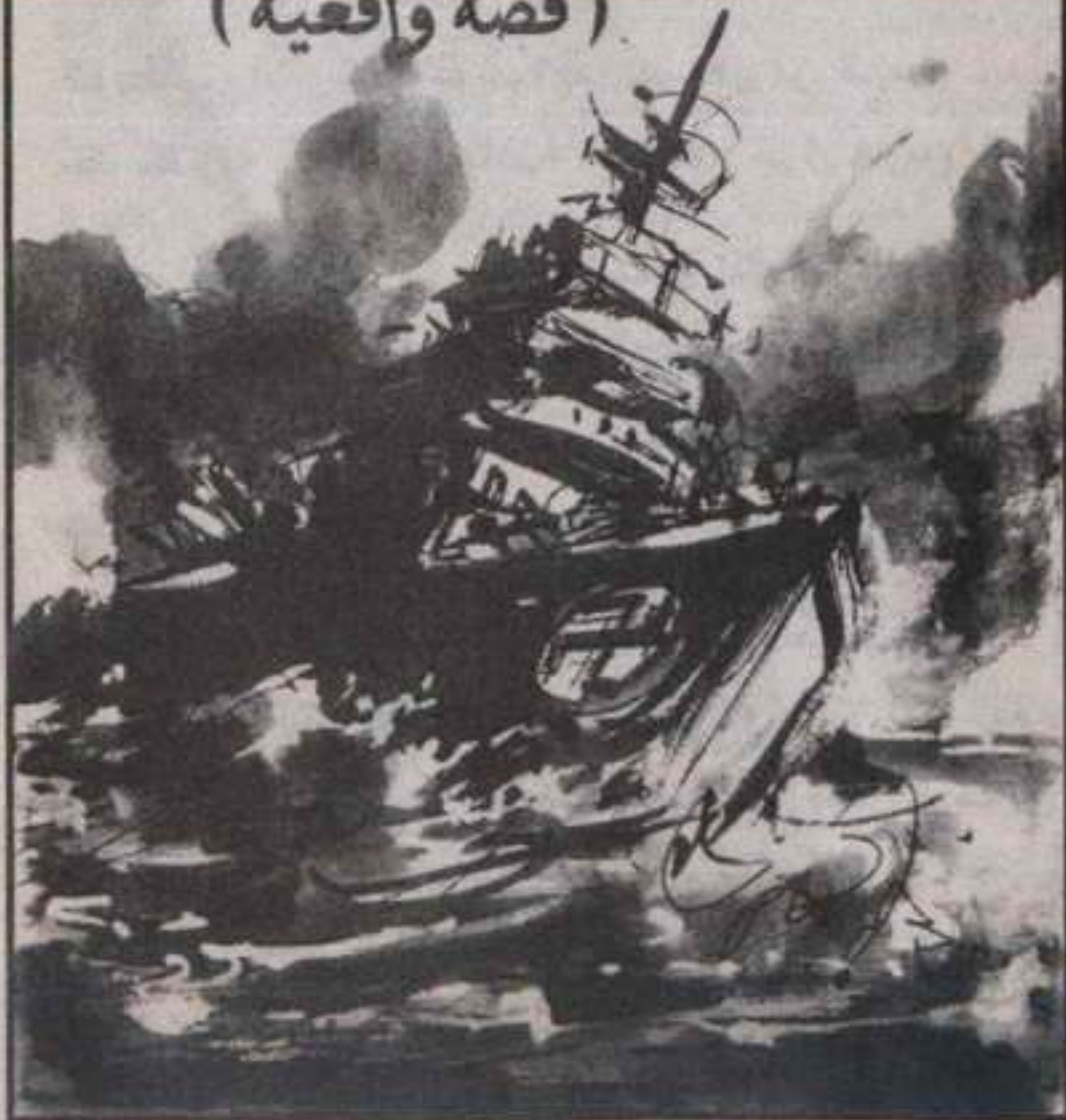
قلوب العرو

وموضوعات أخرى



قصة محيط الدم

(قصة واقعية)



حرب الجوواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبداً ، من حرب ما ..
في مكان ما ..

وزمن ما ..

حروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة
ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنهاراً .

ولكن هناك ، في كل وقت ، وكل مكان ، حرباً
أخرى ، قد تبدأ وتنتهي ، دون أن يشعر بها سوى
أصحابها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ...
والمعرفة ..

فهى حرب تدور في عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

و. نبيل فاروق

وفى ذلك اليوم بالتحديد ، كانت المدمرة الألمانية تشق طريقها نحو منطقة قريبة من الساحل البريطانى الغربى ؛ حيث تجمعت بضع غواصات بريطانية أمريكية ، استعداداً للانطلاق نحو أهداف ألمانية ويابانية جديدة ، كما أكدت البرقية الشفرية السرية ، التى أرسلها جاسوس ألماني رفيع المستوى ، فى قلب القيادة الحربية المشتركة فى (لندن) ..

ولأن الغنيمة كانت ضخمة ، على نحو يسيل له اللعاب ، راح ضباط المدمرة النازية يبدعون استعداداتهم المكثفة ، قبل حتى الوصول إلى منطقة الهدف ، وأخذ القبطان يلقي أوامره هنا وهناك ، و ...

وفجأة ، لمح أحد الضباط الجندى (رالف) ، وهو منهمك فى عمل ما ، عند مؤخرة المدمرة ، فصاح به فى صرامة :

- (رالف) .. ماذا تفعل هنا بالضبط ؟!

وحسبما جرت العادة ، كان ينبغى أن ينهض (رالف) هذا فى سرعة ، وأن يرفع يده بالتحية النازية ، وهو يضرب كعبيه بعضهما ببعض فى قوة ؛ ليفسر لضابطه ما كان يفعله هناك ، فى ركن المؤخرة ..

ولكن العجيب أن (رالف) قد واصل عمله بسرعة

لم تكد الشمس تشرق ، فى صباح ذلك اليوم ، من بدايات عام ١٩٤٣ م ، ذروة الحرب العالمية الثانية ، حتى انعكست أشعتها الذهبية على جسم المدمرة الألمانية الجديدة ، التى دخلت الخدمة منذ ثلاثة أشهر فحسب ؛ لتكبد الأسطول البريطانى والأمريكى وغواصاتهما أكبر قدر من الخسائر ، منذ تلك الضربة اليابانية المباغثة ، لميناء (بيرل هاربور) ..

ففى شموخ وقوة ، راحت المدمرة الألمانية تمخر عباب المحيط ، وعلى متنها ذلك الجهاز الجديد ، الذى ابتكرته العقول الألمانية فى ذلك الحين ، والذى يمتلك قدرة مذهشة ، على كشف حركة الغواصات المعادية ، فى دائرة واسعة حولها ، وربما لأول مرة فى تاريخ حروب البحار والمحيطات ..

وبالنسبة لتلك الفترة ، فى النصف الأول من الأربعينات ، كان جهاز كهذا يعتبر معجزة فى مضممار القتال البحرى ، الذى بلغ أوجه فى تلك المرحلة الحرجة من الحرب ؛ إذ كان ابتكاره بداية لتدمير عدد لا بأس به من الغواصات البريطانية والأمريكية ، وإنقاذ عدد مدهش من المدمرات الألمانية واليابانية ، على نحو لم يسبق له مثيل ..

أكبر ، دون أن يلتفت لضابطه ، أو يوليه أدنى اهتمام ، مما أثار غضب الضابط ، وجعله يندفع نحوه ، صائحاً في ثورة :

- انهض وأجب أيها الجندي .

واصل (رالف) عمله لثوان إضافية ، على الرغم من ثورة ضابطه ، ثم لم يلبث أن نهض في هدوء مستفز ، قائلاً :

- لا بأس أيها الضابط .. لقد أنهيت عملي هنا .

لم يكن من المعتاد أن يخاطب جندي بحري ملتزم ، في البحرية النازية ، ضابطه الأكبر على هذا النحو المستهتر ؛ لذا فقد صاح فيه الضابط في حدة شديدة :

- قف باتضباط ، وأد التحية جيداً أيها الجندي .

ولكن (رالف) لم يقف بالانضباط العسكري اللازم ..

بل ولم يحاول حتى هذا ..

والأدهى أنه قد قام بعمل عجيب ، يعدّ فضيحة في أي نظام عسكري ؛ إذ خلع قبعته أمام ضابطه ، وابتسم في سخرية ، قائلاً :

- لا داعي لكل هذا .. لقد انتهت مهمتي هنا .

وقبل حتى أن يرفع حاجبيه ، من فرط الدهشة ، فوجئ الضابط النازي بالجندي (رالف) يقدم على ثالث عمل مستفز .. بل ثالث عمل جنوني تماماً ..

لقد اندفع نحو حاجز المدمرة ، ثم وثب عبره ؛ ليقفز إلى مياه المحيط ، ويغوص فيها في سرعة ..

ووفقاً للنظم البحرية ، كان ينبغي أن يصرخ الضابط بكل قوته :
- رجل في البحر .

ولكن الضابط النازي لم يفعلها ؛ إذ اتسعت عيناه عن آخرهما وهو يحدّق فيما تركه (رالف) خلفه ، بكل ذهول وذعر الدنيا .. ففي تلك اللحظة فقط ، أدرك الألمان أن من كان أمامه ليس حتماً أحد جنود الأسطول النازي ..

بل وليس حتى ألمانياً ..

ليس لأن (رالف) قد أطلق عبارة إنجليزية ساخرة ، وهو يقفز إلى المحيط ، ولكن لأن ما فعله عند مؤخرة المدمرة ، وما تركه خلفه هناك كان رهيباً .. رهيباً بحق ..

منذ بدأت الحرب العالمية الثانية ، اشتبكت أساطيل الدول المتحاربة فى معركة عنيفة ، ربما لم يشهد العالم مثيلاً بحرياً لها ، فى تاريخه كله ..

معركة سعى كل طرف فيها للسيطرة على البحار والمحيطات ، وتحجيم قدرة الخصم على التحرك فيهما بحرية ؛ باعتبار أن النقل البحرى هو الوسيلة الرئيسية ، التى كانت متاحة - آنذاك - لنقل الأسلحة والمعدات الثقيلة ، من مصانعها فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وحتى الجزر البريطانية ، التى تنقلها بدورها ، عبر المسارات البحرية أيضاً ، لجنودها الذين يحاربون فى قلب (أوروبا) و (آسيا) ، و (إفريقيا) أيضاً ..

ومع ضربة (بيرل هاربور) ، ودخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحرب بثقلها كله ، أصبحت المسارات المائية هى وسيلة نقل الجنود أيضاً ، إلى ساحات المعارك الرئيسية ..

لذا ، كانت مهمة الأسطولين ، اليابانى والألمانى ، هى منع وصول الأسلحة والذخائر والمعدات والجنود المعارين ..

وبأى ثمن ..

وكانت الحرب عنيفة إلى أقصى حد ..

المدمرات والغواصات ، اليابانية والألمانية ، تسعى بكل قوتها وكل ثقلها لإغراق حاملات الجنود والطائرات والمعدات ، فى حين تسعى قطع الأسطول البريطانية والأمريكية لإغراق المدمرات اليابانية والألمانية ، قبل أن تنفذ مهمتها ..

ولفترة ما ، بدا وكأن مصير الحرب كلها يتوقف على الانتصار فى المعركة البحرية بالتحديد ، وخاصة بعد أن بلغت خسائر الطرفين حدًا رهيبًا ، أصبح يهدد بدمار شامل .. وفى تلك المعركة البحرية ، كانت الغواصات هى السلاح الأكثر خطورة وفاعلية بلا منازع ؛ إذ إنها تتسلل تحت سطح الماء ، ويمكنها الاقتراب فى سرية ، حتى مجال رمايتها ، ثم إطلاق طوربيداتها على مدمرات الخصم ، فى غفلة منه ..

لذا فقد أصبح الشغل الشاغل للطرفين هو تطوير الغواصات ، ورفع قدرتها على الأداء ، ومضاعفة قدرات الطوربيدات التدميرية ، و ...

ولكن الألمان كان لهم مسار آخر ..

مسار أكثر عبقرية ..

لقد جندوا علماءهم وعقولهم كلها ، للفوز بهدف آخر ،
ألا وهو القدرة على رصد غواصات الخصم ، قبل أن تبلغ
مدى الرماية المنشود ..

ومن واحدة من أعظم روايات الخيال العلمي على الإطلاق ،
الأوهى رواية (عشرون ألف فرسخ تحت الماء) ، للكاتب
المبدع (جولى فيرن) ، استقى العلماء الألمان فكرة جهاز
رصد الأعماق ..

وبدعوا فى تنفيذه ..

ثم انتقلوا إلى مرحلة التجريب ..

وطوال شهر كامل ، لاحظ البريطانيون والأمريكيون
أن قدرة الألمان على رصد غواصاتهم تجاوزت كل
الحدود المنطقية ، وأنهم لا يكتفون بكشف أمرها ، قبل
أن تبلغ المدى اللازم لتدميرها فحسب ، بل إنها ترشد
طائراتها إليها أيضاً ، فتتجه نحوها مباشرة ، وكأنها تعرف
موضعها جيداً ، وتقصفها بقبائل الأعماق ؛ حتى تنسفها
نسفاً ..

وبهذا ارتفعت خسائر الغواصات الأمريكية والبريطانية ،
إلى حد مخيف ..

وكما يحدث فى مثل هذه الظروف ، بدأت المخابرات
البريطانية فى دراسة الأمر ، ورصده عن قرب ، من خلال
عملاتها فى قلب (ألمانيا) ..

ولأنها كانت متوغلة فى العمق النازى بحق ، حصلت
المخابرات البريطانية على أجوبة أسئلتها ، خلال أسبوع
واحد فحسب ..

وأدركت أنها تواجه خطراً داهماً ..

وهنا كان من الضرورى ، بل من المحتّم ، أن يجتمع
رجالها ، للبحث عن حل لهذه المواجهة الجديدة ، التى
تسيّدت فيها البحرية الألمانية عرش البحار والمحيطات ..

كان الألمان يعملون على تطوير جهازهم الجديد ، فى
سرعة مدهشة ، بعد أن زوّدوا واحدة من أقوى وأسرع
مدمراتهم بالنموذج الأوّل منه ، والذى حقّق بالفعل نجاحات
واضحة ، خلال ما يزيد على الشهر ، وكان على البريطانيين
أن يعملوا بأقصى سرعة ، وفى ثلاثة محاور فى آن واحد ..

المحور الأوّل هو تدمير جهاز رصد الأعماق ، الذى
تحمله المدمرة الألمانية ، والمحور الثانى هو منع تطوير
الجهاز ، فى وقتهم على الأقل ، والثالث ، الذى اعتبرتّه

المخابرات البريطانية أخطر وأهم المحاور ، كان الحصول على تصميمات الجهاز ؛ لإنتاج سلاح مماثل ، والسعى لإيجاد وسائل مضادة له ، فى الوقت ذاته ..

ومن أجل تلك الأهداف الثلاثة ، اجتمع رجال المخابرات البريطانية لثلاثة أيام متوالية ، لم يتذوقوا خلالها إلا القدر الأدنى من النوم ، الذى يبقئهم على درجة مناسبة من الوعي ، تكفى لوضع خطة شديدة التعقيد ..

والواقع أن اجتماعهم الطويل هذا كان مثمرًا بحق ؛ إذ أسفر عن خطة مدهشة لتحقيق الأهداف الثلاثة ، فى ضربة واحدة تقريبًا ..

ومن الواضح أن الجزء الخاص بمنع تطوير الجهاز ، والحصول على تصميماته الرئيسية ، كان عبقرًا وفريدًا بحق ؛ إذ خضع نشر وثائقه لبند السرية البالغة ، الذى لا يتيح كشف الأوراق ، قبل مرور خمسة وسبعين عامًا على نهاية الحرب العالمية الثانية ، وهو أقصى قدر مسموح به ، فى قانون الوثائق البريطانى ..

باختصار ، لن يمكننا معرفة ماتم بشأن المحورين ، الثانى والثالث ، قبل عام ٢٠١٥ م .. أما بالنسبة للمحور

الخاص بتكمير نسخة جهاز رصد الأعماق ، على متن المدمرة الألمانية ، التى أطلقوا عليها اسم (صائدة الغواصات) ، فقد تم نشر وثائقه كاملة ..

والواقع أن البريطانيين قد بذلوا جهدًا بحق ، فى هذه العملية المدهشة ، والتى بدأت ببرقية شفرية ، تم إرسالها إلى واحد من أهم جواسيسهم فى (برلين) ، يطلبون منه فيها أن يمدّهم بالملفات الكاملة لكل طاقم الضباط والبحارة ، الذين يعملون على المدمرة .. (صائدة الغواصات) ..

ولقد أدهش ذلك المطلب جاسوسهم ، وأربكه بشدة ، فأبرق إليهم يؤكد أن كل طاقم المدمرة تم اختياره بعناية فائقة ، وبوساطة رجال (الجستابو) أنفسهم ، وأنه من الخطورة ، كل الخطورة ، بذل أية محاولة لتجنيد أحدهم !

وكالمعتاد ، لم تشرح له المخابرات البريطانية وجهة نظرها أبدًا ، وإنما عادت تبرق إليه بضرورة بذل كل الجهد الممكن ، لتوفير الملفات المطلوبة ، مهما كان الثمن ..

ومن الواضح أن ذلك الجاسوس ، الذى أشارت إليه الوثائق باسم (أليكس) ، وهو ليس اسمه الحقيقى حتمًا ، قد بذل جهدًا خرافيًا ؛ ليرسل إليهم صورة من تلك الملفات ،

عبر عميل آخر سويسرى الجنسية ، أطلقت عليه الوثائق اسم (شبح برن) ، ربما لأهميته وخطورته فى ذلك الحين ..
المهم أن الملفات قد وصلت إلى المخابرات البريطانية ،
التى قضى رجالها ليلة بأكملها ، فى مراجعة صور أفراد
الطاقم ، وصور رجال مخابراتهم هم ، قبل أن يقع اختيارهم
على جندى بروسى المولد ، يدعى (رالف هايدنبرج) ..

وذلك الاختيار لم يعتمد على دراسة عميقة لشخصية
(رالف) ، أو حتى تحريات مسبقة عنه ، وإنما اعتمد فقط
على شكله وملامحه ..

هذا لأن (رالف) كان يشبه إلى حد كبير ، رجلهم
(إدوارد ريفز) ، الذى تم اختياره للقيام بالمهمة ، نظراً
للتشابه أيضاً ..

وكان من الضروري أن يتم كل شيء بسرعة ، ودقة ،
وحزم ..

وفى منتصف الليلة نفسها ، خضع (إدوارد) لعملية جراحية
تجميلية ، الغرض منها تقريب المسافة بين ملامحه ، وملامح
(رالف هايدنبرج) ..

وفى صباح اليوم التالى مباشرة ، وبينما رست المدمرة
الألمانية ، وخرج بحارتها للتنزه والعبث فى الميناء ، بعد
فترة طويلة فى عرض البحار والمحيطات ، كان أحد عملاء
المخابرات البريطانية يؤدى دوره فى الخطة ، دون أن
يدرى ما يتجاوز ذلك الدور ، وربما لم يدرك ، حتى لحظة
وفاته ..

فمع زجاجة خمر ، ووجه محتقن ، وعينين زائغتين ،
اعترض العميل طريق (رالف) ، وتحرش به دون سبب
منطقي ، وراح يسب أبويه وأسرته ، وينعه بصفات يندى لها
الجبين ، حتى ثارت ثائرة (رالف) ، فانقض عليه للاقتصاص
منه ، بكل ما يعتمل فى أعماقه من غضب ثائر ..

وهنا ، ودون أية مقدمات ، نفض العميل البريطانى عن
نفسه كل علامات السكر الزائفة ، وتحول فى لحظة واحدة
إلى مقاتل شرس ، بالغ النشاط والحيوية ، وثب بمنتهى
الخفة ؛ ليكلم الألمانى فى أنفه وقاعدة عنقه بمنتهى الغف ..

وفى لحظة واحدة ، اختفى العميل البريطانى ، وترك
(رالف) خلفه ، يسعل بشدة ، ويحاول عبثاً منع الدماء ،
التى تدفقت من أنفه المحطم بغزارة ..

وبسرعة ، تضافر رفاق (رالف) ؛ لنقله إلى أقرب مستشفى ، أو أقرب نقطة إسعاف ؛ حيث تم تضميد إصابة أنفه ، وطمأنه الطبيب بأن تلك الحشجة في صوته لن تلبث أن تزول ، عندما تتحسن تلك الكدمة الواضحة ، في قاعدة عنقه .

وعلى الرغم من ضماداته وكدماته ، لم يشأ (رالف) إفساد ليلته ، فعرج مع رفاقه إلى أقرب حانة ؛ ليقضوا سهرتهم حتى الصباح ..

ولأن المدمرة سترحل مرة أخرى ، في مساء اليوم التالي مباشرة ، كان لابد من تنفيذ الجزء الثانى من الخطة ، دون أدنى إبطاء ، على الرغم من أن جراح عملية (إدوارد) التجميلية لم تلتئم بعد ..

وكان على (إدوارد) ، الذى خرج من حجرة العمليات ، منذ ساعات قليلة ، أن يقطع رحلة طويلة ، عبر بحر (المانش) ، حتى يبلغ الميناء الفرنسى ، الذى ترسو عنده المدمرة الألمانية ، قبل مطلع الفجر ..

والمدعش أن عملية الاستبدال لم تكن صعبة أو مرهقة

أبدًا ؛ إذ كان (رالف) ورفاقه شبه فاقدى الوعي ، عندما وصل فريق المخابرات إليهم مع (إدوارد) ، فى الخامسة وسبع دقائق فجرًا ..

وبكل بساطة ، ووسط كومة من شهود الإثبات والأصدقاء ورفاق السلاح ، عاد (رالف) إلى المدمرة الألمانية ؛ ليقدم تقريرًا عما أصابه فى الميناء ..

وعندما تم التأكد من اكتمال العمل ، وأقلعت المدمرة النازية ؛ لتواصل رحلة صيد غواصات الأمريكين والبريطانيين ، كان تغييرًا أساسيًا قد حدث ، دون أن ينتبه إليه شخص واحد على سطحها ..

لقد استبدل بـ (رالف) الألمانى النازى الوطنى ، البريطانى (إدوارد) ، الذى أصبح نسخة طبق الأصل منه ، مع الضمادات على أنفه ، والكدمة فى قاعدة عنقه ، وذلك الصوت المتحشرج الأجش ، الذى لا يشبه صوت أحدهما على الإطلاق ..

وفور إقلاع المدمرة ، بدأ (رالف) المزيف رحلة البحث عن جهاز رصد الأعماق ..

ومع توسُّط الشمس لكبد السماء ، بلغ هدفه ،
وحدّد موقعه ، وراجع خطّته ، واستعدّ لخطة العمل المتفق
عليها ..

وفي تلك الليلة ، نام (إدوارد) ملء جفنيه ، وسط جنود
ألمان ، يؤمنون كل الإيمان بالفكر النازي ، وحتمية سحق
كل من يعاديه ..

باختصار ، نام وسط أعداء ، يكفي كشف هفوة واحدة
منه ، لينقضوا عليه ، ويمزقوه إرباً في لحظات ، دون أن
يطرف لهم جفن ..

ومع نوبة الاستيقاظ الصباحية ، بدأ (رالف) الزائف
عمله على الفور ..

وفي نقطة تعلو تلك الحجرة ، التي تحوى جهاز رصد
الأعماق ، زرع المتفجرات ، التي تم إخفاؤها بمنتهى العناية
في حذائه ، و ...

ولكن ذلك الضابط النازي كشف أمره ..

وعلى الرغم من صراخ الضابط الألماني ووعيده ،

أكمل (رالف) عمله ، ثم هبّ يلقي نفسه في مياه
المحيط ..

ولثوان ، حدّق الضابط النازي في المتفجرات ، التي
تركها (رالف) خلفه ، قبل أن يصرخ بكل قوته :
- قنبلة على السطح ..

ولكن صرخته لم تكتمل أبداً ؛ فقد قاطعها انفجار
مدوّ ، نسف مؤخرة المدمرة ، ودفتها الرئيسية ،
وجزءاً من سطحها ، يطلّ مباشرة على جهاز رصد
الأعماق ..

ومع دوى الانفجار ، اندفعت الغواصات الأمريكية
والبريطانية نحو المدمرة ، وكأنما كان الانفجار إشارتها
للهجوم ، واستغلّت التلف الجزئي ، الذي أصاب جهاز
الرصد ، لتطلق طوربيداتها نحوها في آن واحد ..

وكانت أسرع مدمرة تغرق ، في تاريخ الحرب العالمية
الثانية كلها ، بعد أن حوّلتها الطوربيدات إلى أشلاء
متناثرة ..

وقبل حتى أن تصل الطائرات الألمانية ، كانت إحدى
الغواصات البريطانية قد التقطت (إدوارد) ، وانطلقت عائدة به
إلى الوطن ..

وهكذا وصلت المقاتلات الألمانية ؛ لتجد أمامها محيطاً
تسبح فيه جثث أفراد طاقم المدمرة ، التي غاصت بجهاز
الرصد إلى الأعماق كالحجر ..

محيط من الدم .. والهزيمة ..

بلا حدود .

مذكرات

③ رجل مخابرات

معلومات .. معلومات



مذكرات رجل مخابرات

أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى
عالم خاص ..

خاص جدًا

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار
المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصور حتى أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك

الرجل ..

فهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرد كلمات ..

مجرد مذكرات رجل ..

رجل مخابرات .

٣- معلومات .. معلومات ..

منذ انتهت دورتى التدريبية ، فى مدرسة المخابرات ،
وعودتى إلى مكتبى الصغير فى الإدارة ، وقر فى أعماقى
أمر ، يخالف كل ما كنت أتصوره من قبل ..

فعالم المخابرات ليس سهلاً أبداً ..

ربما يبدو مثيراً من الخارج ، ومغرياً بالبحث والدراسة ،
ولكنه - كأي علم آخر - يمنحك فى البداية شعوراً زائفاً
بالمعرفة ، عندما تكشف مفاتيحه الأولية ، وتعرف قواعده
الأساسية ..

فى تلك المرحلة الأولية تبدأ فى التباهى بنفسك ، والزهو
بأعماقك ، والادعاء فى داخلك بأنك قد صرت خبيراً فى
مضمارك ..

ثم تتلقى معلومات أكثر ..

ومعارف أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وعندئذ تدرك الحقيقة ..

تدرك أن كل ما تعرفه ليس سوى قطرة في بحر ..

بحر المعلومات ..

تماماً كالشطرنج ..

من السهل أن تعرف قواعده وأساسياته ..

ومن العسير جداً أن تبرز وتتفوق فيه ..

هذا يحتاج إلى سنوات وسنوات ، من الخبرة ،
والمران .. والمواجهة ..

وكلما ربحت مباراة ، تدرك أكثر أنك كنت مجرد مشاهد
من قبل ..

مشاهد يحفظ القواعد فحسب ..

ولأنني قد أدركت هذا مبكراً - لحسن الحظ - فقد شعرت بنهم
شديد إلى المعرفة والمعلومات ، ورحلت أتساءل : كيف
يمكنني الحصول على المزيد منها ، و ...

« هل يمكنني الدخول ؟! »

انطلق السؤال في مرج واضح ، في نفس اللحظة التي عبر
فيها عريض المنكبين باب حجرة مكتبي ، وألقى جسده على
المقعد المواجه لمكتبي ، مستطرداً بابتسامة كبيرة :

- أم أنني قد دخلت بالفعل .

كان أسلوبه هذا يستفزني لسبب ما .. ربما لتعارضه تماماً مع
طبيعة شخصيتي الرصينة ، لذا فقد أجبته في هدوء مترن :

- تفضل ، على الرحب والسعة .

مال نحوي ، وغمز بعينه ، متسائلاً :

- كيف حال تلميذنا الصغير ؟! سمعت أنك قد اجتزت
دورتك الدراسية بتفوق ، وناظر المدرسة يمدح نشاطك
وذكاءك بحق .

كان من الواضح أن أسلوبه قد ضايقني إلى حد ما ، وأنا
أقول في اقتضاب :

- عظيم .

تراجع مطلقاً ضحكة مرحة ، قبل أن يلوح بسبائته ، قلقاً :

- لو أردت نصيحتي يا صديقي ، فاطرح عن ذهنك هذا
التزمّت العسكري ، واندمج في عالمنا هذا .

قلت في حزم :

- كنت أظن أن الرصانة هي أساس عمل المخابرات .

هز رأسه نفياً في ببطء ، قبل أن يتطلع إلى عيني
مباشرة ، ويقول بابتسامته الكبيرة :

- عملنا لاصلة له بالرصانة أو المرح يا صديقي .. عش
كما يحلو لك ، مادام ما تفعله ينعش آلتك الرئيسية .

أطلق التساؤل من عيني، فمال نحوي، وأكمل، مشيراً إلى رأسه :

- هذه .

شملنا الصمت بضع لحظات ، بعد أن نطق عبارته الأخيرة هذه ، وكلانا يتطلع إلى عيني الآخر مباشرة ، قبل أن يعتدل هو في مقعده ، ويسألني في جدية ، لا تتفق مع طبيعته المرحية :

- ما الذي يقلقك بالضبط ؟!

لم أعتد أبداً الإفصاح عن مشاعري للآخرين ، وعلى الرغم من هذا ، فقد وجدت نفسي أجيبه في بساطة :

- ما زال ينقصني الكثير ؟!

هز كتفيه ، قائلاً :

- هذا أمر طبيعي .. لقد بدأت عملي بصعوبة .

كررت في توتر :

- ما زال ينقصني الكثير ، حتى أبدأ عملي ، على نحو جيد .

سألني في اهتمام :

- ما الذي ينقصك بالضبط ؟!

أجبت في سرعة ، وكأني كنت أنتظر سؤاله في شغف :

- المعلومات .

كنت أتصور أن جوابي سيدهشه ، أو سيثير تعجبه أو استنكاره ، إلا أنني فوجئت به يستعيد ابتسامته العريضة ، وهو يقول :

- أمر طبيعي .

ثم نهض من مقعده فجأة ، مضيفاً :

- اترك لي هذا الأمر .

سألته في شيء من اللهفة :

- وماذا يمكنك أن تفعل ، في هذا الشأن ؟!

أطلق ضحكة مرحة ، وهو يندفع نحو الباب ، مجيباً :

- ستري .

تابعته ببصري ، وهو يغادر الحجرة ، قبل أن أراجع في مقعدي ، متسائلاً في أعماقي ، في قلق عارم : أكان من المنطقي أن أتحدث إليه ، في هذا الشأن ؟!

ثم كررت في أعماقي السؤال ذاته ..

ما الذي يمكنه أن يفعله ؟!

لقد تعلمنا ، فى مدرسة المخابرات ، أن إحدى القواعد الأساسية ، فى عالم المخابرات ، هى « المعرفة بقدر الحاجة .. »

وهذه قاعدة تبدأ مع كل عملية ..

فالكل ، فى أثناء العملية ، هم قطع فى لوحة شطرنج ، يحركها لاعب ماهر ، بخطة مسبقة ، تم تحديد هدفها مسبقاً ، ولكن خطواتها تتحدد وتتطور ، مع تحركات قطع الخصم ..

وفى اللعبة ، لا يعرف كل المعلومات سوى اللاعب وحده ، أما قطع الشطرنج ، فكل منها لا يعرف سوى ما يخص دوره فحسب ..

ومن هنا ، أتت العبارة .. (المعرفة بقدر الحاجة) ..

وأنا أدرك الحكمة من هذا جيداً ..

فالعامل خلال الخطة ، يدور فى إطار من السرية التامة ؛ حتى لا يعرف الخصم تحركاتك القادمة مسبقاً ، فيستعد لمواجهتها ، أو ضربها عند اللزوم ..

والسرية التامة تستلزم ألا يتجاوز السر عقل صاحبه فحسب ..

هو وحده يمتلك كل المعرفة ..

ويشارك فيها معاونيه ومستشاريه فحسب ..

أما الأفراد ، أو قطع الشطرنج ، فمعارفهم لابد أن تكون محدودة بأدوارهم ؛ حتى لا ينكشف السر أو ينتشر ..

بل إن بعضهم لا يعلم حتى لماذا يقوم بهذا الدور ..

أو ما الهدف منه ..

ولكنه ينفذه فحسب ..

وبمنتهى الدقة ..

ومنتهى الأمانة ..

وهذا لا يتنافى مع ضرورة أن يعرف كل فرد كل المعلومات ، التى تساعد على القيام بدوره ، على أكمل وجه ممكن ..

ولكن دون معرفة زائدة ..

باختصار ، على كل فرد معرفة ما يفيد ، دون أدنى زيادة أو نقصان ..

وكما ترون ، فهذه عملية بالغة الدقة ، ولا يقدر على

إدارتها بنجاح ، سوى لاعب ماهر ، خبير ، محنك ،
برتبة ضابط ..

ضابط مخابرات ..

وتصحيحاً لمعلومة خاطئة سائدة ، لا يعمل ضابط المخابرات
وحده أبداً ؛ فعندما نقول : إنه يتولى عملية ما ، فهذا يعنى
أنه يرأس فريقاً من المفكرين ، والمخططين ، والمستشارين ،
والخبراء ؛ لأنه لا يمكن لعقل واحد أن يدير لعبة متكاملة ..

الخصم يدير عملياته بفريق من الخبراء ، ولا بد من أن
تتصدى له بفريق آخر من الخبراء .. هذا لأنه من
المستحيل أن يهبط لاعب واحد ، مهما بلغت براعته ، إلى
ملعب كرة قدم ، ليواجه الفريق الخصم بأكمله ، ثم يكون
المطلوب منه أن يحرز أهدافاً أيضاً !!

من المستحيل تماماً !!

هذا ألف باء عمل المخابرات ، كما تعلمته على أيدي
خبراء ..

انترعنى فجأة ، من أفكرى هذه ، صوت طرقات رصينة على
الباب ، فرفعت رأسى ، قائلاً فى آلية :

- ادخل .

لم أكد أنطقها ، حتى شعرت بشيء من الحنق ؛ لأننى لم
أتبع القواعد ، التى تحتم السؤال عن الطارق أولاً ،
وصرخت فى أعماقى أنه من الضرورى أن أنتبه إلى هذا ، فى
المرّة القادمة ..

ولكننى لم أستغرق طويلاً ، فى حالة اللوم الذاتى هذه ؛ إذ انفتح
باب مكتبى الصغير فى هدوء ، وظهر على عتبة وجه القنفذ ،
برصانته المعتادة ، وصوته الرفيع ، وهو يقول :

- أخبرونى أنك تريدنى يا سيدي .

انفجرت شفتاى ؛ لإنكار هذا واستنكاره ، وسؤاله عمن
أبلغه به ، لولا أن استدرك فى سرعة :

- بشأن المعلومات .

وعندئذ فهمت على الفور ..

إنه عريض المنكبين ..

وهذا ما فعله ..

لقد أرسل إلى وجه القنفذ ، لسبب ما ..

سبب جعلنى أسأله فى اهتمام :

- وهل يمكنك أن تفيدنى فى هذا الشأن ؟!

أجابني في هدوء رصين ، وهو يدلف إلى المكتب :
- بالتأكيد .

يومها عرفت الكثير عن العالم المحيط بي في الإدارة ..

عرفت أن وجه القنفذ هذا شخصية مدهشة بحق ،
وتدعو إلى الاحترام ، إلى أقصى حد ممكن ..

إنه أرشيف حي ، يحمل في عقله ، وأعماقه ، وكل ذرة
في كيانه ، كمًا هائلًا من المعلومات ، عن عالم المخابرات ،
وتاريخه ، وعملياته ، وأسراره المدهشة ..

ثم إنه يمتلك أسلوبًا سلسًا جذابًا ، وهو يروي عملية
مخابرات قديمة ، أو يشرح نقطة غامضة ، أو يفسر خطوة
حسّمت قضية ما ..

ولساعات طويلة ، لم أشعر بمرورها ، راح عقلي يحتشد
بعشرات القصص ، والروايات ، والمعلومات ..

معلومات ..

معلومات ..

معلومات ..

والمدهش أنني لم أشعر قط بالتعب ..

أو الإجهاد ..

أو الملل ..

أو حتى الشبع ..

بل على العكس تمامًا ، لقد تضاعف فهمي للمعرفة
والمعلومات أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

والرائع أن وجه القنفذ لم يبد أي ضجر ، أو يعلن تعب
أو إجهاده ..

كان يبدو هادئًا رصينًا كعادته ، ومستعدًا للمضي في
حديثه ، حتى آخر مدى ، لولا أن سمعنا صوت عريض
المنكبين ، وهو يقول ضاحكًا :

- رويدكما .. المخابرات لن تنتهي الليلة .

انتبهت ، مع كلماته فقط ، إلى أننا قد تجاوزنا ساعات
العمل الأساسية بأربع ساعات كاملة ، دون أن ينبهني
وجه القنفذ إلى هذا ، أو يبدى تبرمه أو غضبه ؛ بسبب
تلك الساعات الإضافية ، التي أجبرته على قضائها

بشففى الشديد للمعلومات ، واحتملها هو برصانته
وشهامته ، وطبيعته المهدبة ، التى أكشفها لأول مرة ..

أما عريض المنكبين ، فقد تابع بمرحه المعتاد ، وهو
يشير بسبأبته :

- المعلومات هنا لا حصر لها ، وستظل تنهل منها ،
حتى آخر لحظة فى حياتك .

وغمز بعينه ، وهو يضيف ضاحكاً :

- ثم إننى قررت أن أدعوك لتناول طعام الغداء ؛
لنتعارف أكثر على الأقل .

نهض وجه القنفذ إثر كلمات عريض المنكبين ، وقال فى
هدوء رصينى مهذب :

- غذا نكمل .

ثم استدرك فى سرعة :

- لو أن هذا يناسبك .

نهضت بدورى أصافحه فى حرارة واحترام ، قائلاً :

- يناسبنى بالتأكيد .

اتسعت ابتسامة عريض المنكبين ، وهو يعقد ساعديه أمام
صدره القوى ، وظل صامتاً ، حتى انصرف وجه القنفذ
تماماً ، فقال ، وهو يغمز بعينه عابثاً فى مرح :

- من الواضح أن الغلاف العسكرى سيذوب بسرعة .

أشرت بيدي ، نحو الباب الذى انصرف منه وجه
القنفذ ، وأنا أقول :

- إنه رجل رائع .

فهم عريض المنكبين ما أعنيه على الفور ، فأوما برأسه
موافقاً ، وهو يقول بابتسامة كبيرة :

- بالتأكيد .

سألته فى اهتمام :

- أهو ضابط مخابرات قديم ؟!

هز رأسه نفياً ، وهو يقول فى بساطة :

- إنه ليس ضابط مخابرات .

اتسعت عيناي فى دهشة ، فأضاف :

- إنه موظف قديم هنا .

هتفت بكل دهشة الدنيا :

- موظف ؟!

قال فى بساطة ، وهو يفسح لى الطريق ؛ لنغادر المكتب معاً :

- نعم .. موظف مسئول عن أرشيف العمليات ..

ثم ضحك ، مضيقاً :

- هل تعتقد أن أجهزة المخابرات تعمل بالضباط وحدهم ؟!

قلت فى انبهار ، ونحن نسير فى ممرات المبنى :

- ولكنه يملك قدرًا مدهشًا من المعلومات .

وافقتى بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

- نعم .. إننا نعتمد على ذاكرته الأرشيفية المدهشة هذه كثيرًا .

شغلنى التفكير فى هذا الأمر ، طوال طريقنا إلى ذلك المطعم الأنيق الهادئ ، الذى يحتل طابقًا كاملاً ، من المبنى الإدارى الثالث ، وما إن جمعنا مائدة الطعام ، حتى سألت عريض المنكبين فى اهتمام :

- لدينا هنا عدد كبير من الموظفين ؟!

أوما برأسه إيجابًا ، وقال :

- بالطبع .. لدينا موظفون للحسابات ، وشئون الأفراد ، وكل الأعمال الإدارية الأخرى .

ثم ابتسم ، مستطردًا :

- حتى رجال المخابرات ، يحتاجون إلى من يتولى شئون رواتبهم وأعمالهم يازميلي .

كدت أهتف بأن هذا أمر طبيعى ، وأعلن دهشتى من أننى لم أنتبه إليه ، إلا أننى اكتفيت بالتراجع فى مقعدى ، وأنا أقول :

- بالتأكيد .

تناول عريض المنكبين طعامه فى هدوء ، لا يتناسب مع مرحه ونشاطه المعتادين ، وقال ، وهو يمضغ قطعة من اللحم المشوى :

- هل فكرت ، فى أية مخابرات تنوى أن تبدأ عملك معنا ؟

تساءلت بدهشة عارمة :

- ما الذى يعنيه هذا ؟! أهنالك مخابرات أخرى هنا ؟!

العائلة المسمومة

(من قصص الصراع العربي الإسرائيلي)



مذكرات رجل مخابرات

٤٠

ابتلع قطعة اللحم المشوى ، ثم ابتسم ابتسامة كبيرة ،
وهو يمسح فمه بمنشفة صغيرة ، ويميل نحوى ، قائلاً :

— بالطبع أيها التلميذ الجديد .. هناك نوعان من
المخابرات دوماً .

ومع انبهارى الشديد ، رحلت أستمع إليه بمنتهى
الشغف ..

ورحلت أنهل من فيض جديد من المعلومات ..
بلا حدود .

تابع في الكتب القادمة

لقد أثرت أعصابى بشدة ! المفترض أن ..

بئر عبارته بغثة ، عندما لمح ذلك التوتر العنيف ، الذى يطل فى إصرار ، فى كل خلجة من خلجات مدير المخابرات الإسرائيلى ، وسأله فى قلق شديد :

- ماذا حدث ؟! ألم تصل الرسالة ؟!

تردد مدير المخابرات الإسرائيلى لحظة ، قبل أن يناوله ورقة مطوية ، وهو يجيب :

- الواقع أن الرسالة قد وصلت ، ولكن ليس على النحو الذى كنا نتوقعه .

اختطف (ياريف) الورقة من يده ، وفضها فى سرعة ، وارتجف جسده كله فى عنف ، وهو يقرأ أسطرها القليلة ، قبل أن يترك جسده يسقط على أقرب مقعد إليه وهو يتمتم :

- كارثة ! كارثة !

وافق مدير المخابرات الإسرائيلى بوجه شاحب ، وإيماءة مبتورة ، فدفن الرجل وجهه بين كفيه بضع لحظات ، قبل أن يطلق من أعماق صدره زفرة ملتبهة ، ثم يلتقط سماعة الهاتف ، ويطلب رقم رئيسة الوزراء ، التى لم تكذ تتعرف صوته ، حتى سألته فى لهفة :

- هل أحضرت الأوراق المطلوبة ؟!

العائلة المسمومة .. (من قصص الصراع العربى الإسرائيلى)

منذ أشرقت شمس الثلاثين من أغسطس ، عام ١٩٧٤م لم يهدأ (أهارون ياريف) المستشار الأمنى لرئيسة الوزراء الإسرائيلىة (جولدا مائير) لحظة واحدة ، وهو يعد كل الأوراق والمستندات التى تحتاج إليها رئيسة الوزراء ، فى اجتماع المجلس ، الذى تقرر عقده فى الواحدة ظهراً ..

كل ما كان ينقصه ، ليتم أوراقه ، هو رسالة لاسلكية ، تحوى بعض المعلومات العسكرية المصرية المهمة ، التى طلبتها رئيسة الوزراء ، والتى وعده مدير المخابرات شخصياً بإحضارها فى الوقت المناسب ، فور وصولها من (القاهرة) ، عبر جهاز إرسال حديث للغاية ، يبدأ بثه لأول مرة ، على يد واحد من أهم وأخطر عملاء (إسرائيل) فى قلب (مصر) ..

مع مرور الوقت ، واقترب عقارب الساعة من منتصف النهار ، تضاعف توتر (ياريف) وخاصة عندما اتصلت به (جولدا مائير) وطلبت منه استكمال كل أوراقه ، قبل الواحدة ..

وفى الثانية عشرة والنصف بالضبط ، أبلغه مدير مكتبه أن مدير المخابرات الإسرائيلى وصل بنفسه ، فطلب منه إدخاله على الفور ، واستقبله فى لهفة متوترة ، وهو يهتف :

- أهلاً يا رجل .. لماذا تأخر وصول الرسالة كل هذا الوقت ؟

ازدرد (ياريف) لعبه فى صعوبة ، وقال :
- كلاً .. لم تكتمل الأوراق .
هتفت محنقة :

- كيف هذا ؟! الاجتماع سيبدأ بعد ..
قاطعها فى توتر زائد :

- أعتقد أن أفضل ما يمكن عمله الآن ، هو إلغاء الاجتماع ،
حتى إشعار آخر .

صمتت رئيسة الوزراء الإسرائيلية لحظة ، من فرط الصدمة ،
قبل أن تسأله فى خفوت ، شف عن مدى انفعالها :

- ماذا حدث ؟!

أطلق زفرة أخرى ، قبل أن يجيب :

- المصريون فعلوها مرة أخرى .. لقد أوقعوا بأقوى رجالنا
فى (القاهرة) .. وبضربة واحدة .

ولم تنبس رئيسة الوزراء بحرف واحد ..

فقد كانت الصدمة عنيفة ..

إلى أقصى حد ..

(إبراهيم سعيد شاهين) ، موظف سابق وأحد سكان مدينة
(العريش) ، الذين عانوا الأمرين ، بعد الاحتلال الإسرائيلى
فى يونيو ١٩٦٧م

لقد خسر وظيفته ، وعمله ، فى نفس الوقت الذى انشطرت
فيه عائلته ؛ إذ كان ولداه (نبيل) و (محمد) يدرسان فى
(القاهرة) فى حين يقيم هو وزوجته (اشراح على موسى)
فى (العريش) ويكافحون كالأخرين ، للحصول على دخل
يكفى لحياة متوازنة ، فى ظل الاحتلال ..

كثيرون هم من عانوا هذه الظروف ..

وقلة من فعلوا مثل (إبراهيم شاهين) ، الذى رأى أن
السبيل الوحيد ، للتخفيف من وطأة ومتاعب الاحتلال ، هو
اللجوء إلى المحتلين أنفسهم ..

وفى صباح أحد الأيام الدافئة توجه (إبراهيم) إلى الحاكمية
العسكرية ، وطلب مقابلة أحد المسئولين فيها ، طلباً لفرصة
عمل أو مساعدة ، فالتقى به بالفعل الضابط (نعيم) ، واستمع
إليه جيداً ، ثم طلب منه الحضور فى اليوم التالى ..

وكعادة الإسرائيليين ، قضى الضابط (نعيم) ذلك اليوم ،
فى جمع المعلومات عن (إبراهيم شاهين) ، ومعرفة طباعه

وسماته ، ومراجعة تصرفاته ، حتى جاء اليوم التالى ، وهو يدرك جيداً طبيعة الرجل ، الذى حضر فى الموعد المحدد ، فأعطاه (نعيم) جوال دقيق ، وطلب منه الاتصال به مرة أخرى ، إذا ما احتاج إلى المساعدة .

وعاد (إبراهيم) إلى منزله بجوال الدقيق ، الذى سعدت به زوجته (انشراح) ، وراحت تلقى عليه عشرات الأسئلة ، حول الضابط (نعيم) ، وأسلوب حديثه ، وما طرحه عليه من أسئلة ، ثم لم تلبث أن شجعت على الاتصال به مرة أخرى ، وطلبت منه أن يتقدم بطلب للسفر إلى (القاهرة) ؛ ليلتم الشمل لولديهما (نبيل) و(محمد) .

وبفضل تشجيع (انشراح) المستمر ، ذهب (إبراهيم) مرة أخرى لمقابلة الضابط (نعيم) ، الذى أحسن استقباله ، ودعاه إلى مكتبه ، مما شجع (إبراهيم) ، فطلب منه تصريح السفر إلى (القاهرة) ؛ وهنا تراجع (نعيم) فى مقعده ، وسأله :

- وما الذى ستفعله فى (القاهرة) يا (إبراهيم) ؟

أجابه (إبراهيم) فى حذر :

- لى ولدان هناك ، وسوف ..

قاطعه الضابط (نعيم) فى صرامة ؛ مكرراً :

- ما الذى ستفعله فى (القاهرة) ؟!

تلفت (إبراهيم) حوله فى حذر قلق هذه المرة ، قبل أن يميل نحو مكتب الضابط (نعيم) متسائلاً فى همس ، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد :

- ماذا تريدون منى أن أفعل فى (القاهرة) ؟!

وهنا ابتسم الضابط (نعيم) وضافت عيناه ، وهو يقول :

- هذا يحتاج إلى مقابلة شخص مسئول .

وفى اليوم التالى اصطحبه (نعيم) إلى (بئر سبع) ، حيث التقى بالضابط (أبى يعقوب) ، الذى عرض عليه العمل معهم فى وضوح ، وأخبره أن كل المطلوب منه فى (القاهرة) ، هو معرفة أسعار الخضر والفاكهة ، بحجة إرسالها إلى شقيقه الذى يمتلك مكتباً للاستيراد والتصدير فى (لندن) ..

ووافق (إبراهيم) على الفور ، وخاصة بعد أن علم أنه سيحصل على راتب مقداره مائتا دولار شهرياً ، بالإضافة إلى مكافأة خاصة ، على كل معلومة مهمة يرسلها ، ولقد أعطاه (أبو يعقوب) ألف دولار ، وبعض العناوين فى (أوروبا) لإرسال المعلومات إليها ..

وعند عودته إلى منزله أخبر (إبراهيم) زوجته (انشراح) بكل ما حدث ، فسعدت بالراتب وقررت مساعدته فى عمله القذر ، فور وصولهما إلى (القاهرة) ..

وهكذا انتقل (إبراهيم) و(انشرح) إلى (القاهرة) حيث استقبلهما مسئول محافظة (سيناء) في (القاهرة) في ذلك الحين ، ومنحهما بعض التسهيلات المالية المخصصة لضحايا العدوان ، كما حصل على منزل في حي (المطرية) ، واستقر بهما المقام هناك مع ولديهما (نبيل) و(محمد) والتأم الشمل أخيراً ..

ولم يضيع الزوجان لحظة واحدة ، منذ وصولهما إلى (القاهرة) ، فقد بدعوا في جمع كل ما يمكنهما من معلومات على الفور ، وأخذوا يرسلان حصيلتيهما أولاً فاولاً إلى تلك العناوين في (أوروبا) ..

ويبدو أن تلك المعلومات كانت جيدة بالفعل ، إذ لم يلبث الإسرائيليون أن طلبوا من (إبراهيم) و(انشرح) السفر إلى (روما) وهناك تم سحب جوازي سفرهما المصريين ، وحصل بدلاً منهما على جوازي سفر إسرائيليين ، باسم (موسى عمر) و(دينا عمر) وحملتهما واحدة من طائرات (العال) إلى مطار (اللد) في قلب (إسرائيل) ومنه انطلقت بهما سيارة حربية إسرائيلية إلى (بئر سبع) مباشرة ، حيث استقبلهما (أبو يعقوب) ، الذي سألهما عن مصادر معلوماتهما ، قبل أن يقول في حزم :

- إننا نثق بأقوالكما بالتأكيد ، ولكن هناك اختباراً ينبغي القيام به .

وكانت صدمة للزوجين ، عندما علما أن السبب الرئيسي لإحضارهما إلى (تل أبيب) هو إخضاعهما لاختبار خاص على واحد من أحدث أجهزة كشف الكذب الأمريكية ..

وعندما جاءت نتائج الاختبار لتؤكد أنهما يتعاونان بالفعل مع المخابرات الإسرائيلية ، وليس لحساب المخابرات المصرية ، اعتذر لهما (أبو يعقوب) ، وأخبرهما أن هذا يحدث مع كل العملاء بلا استثناء ، بين كل فترة وأخرى ، ثم أبلغهما أنهما سيتلقيان بعض التدريبات ؛ لرفع مستوى كفاءتهما في أعمال التجسس وجمع المعلومات ..

وبالفعل تلقى (إبراهيم) و(انشرح) دورة تدريبية متقدمة ، على أعمال التجسس ، واستخدام الأخبار السرية واللاسلكي وغيرها ، قبل أن يعودا مرة أخرى إلى (أوروبا) ، ويستعيدا جوازي سفرهما الحقيقيين ؛ ليعودا بهما إلى (القاهرة) ..

وفي هذه المرة ارتفع الراتب إلى ثلاثمائة دولار ، وتضاعفت مكافأة جمع المعلومات ، مما شجع الزوجين الخائنين على المضى قدماً في خيانتهم ، وشجعهم أيضاً على القيام بخطوة غير مسبوقة ، في مجال الجاسوسية ..

فذات يوم ، وبمحض الصدفة ، كشف (نبيل) حقيقة والديه ، وكونهما جاسوسين ، يعملان لحساب المخابرات الإسرائيلية ..

وعلى عكس ما توقع (إبراهيم) و(انشراح) لم يغضب (نبيل) ، أو يثر ، أو حتى ينظر إليهما نظرة احتقار وازدراء ، بل طالب بنصيبه في الكعكة ما دامت تكفى الجميع ..

وبأسلوب عملي بحت ، وبلا أدنى لمحة من المشاعر الأبوية ، أخبر (إبراهيم) ابنه أنه لا نقود بلا عمل ، وما دام يرغب في الحصول على أجر كبير ، فليقم بجمع المعلومات المطلوبة أيضاً ..

وهكذا انضم عضو جديد إلى شبكة الجاسوسية العائلية ..

ولم يمض شهران آخران ، حتى انضم (محمد) أيضاً إلى مستنقع الخيانة ، ليكمل بهذا النصاب العائلي كله ، وليكتب تاريخ الجاسوسية اسم أول عائلة تعمل بالكامل في هذا المضمار ، وفي الجانب القذر منه فحسب ..

ومع تعاون الأسرة ، بدأ الإسرائيليون يتلقون فيضاً من المعلومات التي أسالت لعابهم ، وأثارت اهتمامهم ، وخاصة في تلك الفترة بعد وفاة الرئيس (جمال عبد الناصر) وتولى الرئيس (أنور السادات) السلطة ، وسعى الجميع لمعرفة قراره بشأن الموقف المتجمد في (سيناء) ..

حرب أم لا حرب ؟!

ولأن الموقف كان يستحق الانتقال إلى خطوة تالية ، فقد تم استدعاء الزوجين مرة أخرى إلى (روما) ، ومنها سافرا بجوازى السفر الإسرائيليين إلى (اللد) ومنها إلى (بئر سبع) ، حيث استقبلهما (أبو يعقوب) ، بترحاب بالغ هذه المرة ، وأخبرهما أن راتبهما سيرتفع إلى ثلاثمائة وخمسين دولاراً ، كما أن المكافآت ستتضاعف مرة أخرى ، ثم أبلغهما أنهما سيتلقيان دورة تدريبية جديدة متقدمة ، عن كيفية تصوير الأهداف والمستندات ، وأن بانتظارهما مفاجأة مذهلة بعد انتهاء الدورة مباشرة ..

وخاض الزوجان الدورة التدريبية الجديدة ، وتلقى كل منهما آلة تصوير حديثة دقيقة ، يمكنها التقاط الصور في الضوء الخافت ، وبسرعة كبيرة ، ودون الحاجة إلى مصابيح تصوير ..

ومع اجتياز الدورة بنجاح ، كانت تلك المفاجأة في انتظارهما بالفعل ..

فبعد اطمئنان الإسرائيليين إلى إخلاص (إبراهيم) و(انشراح) في الخيانة قرروا ضمهما إلى الجيش الإسرائيلي فحصل (إبراهيم) على رتبة مقدم ، في حين حصلت (انشراح) على رتبة ملازم أول ..

وعاد الخائن إلى (مصر) وهما يحملان رتبتيهما
الجديديتين ، وآلات التصوير الحديثة ..

وعادت عجلة الخيانة تدور ..

وفى أوائل أكتوبر عام ١٩٧٣م سافرت (انشراح) وحدها
إلى (روما) وانتظرت هناك قدوم (أبى يعقوب) ، الذى
وصل يوم السابع من أكتوبر ، وهو يحمل حزن ومرارة
الدنيا كلها ، وسألها عن ظروف الحرب ، وسقوط خط
(بارليف) ، وتفوق المصريين والسوريين على الجبهتين ،
فتلقت الخبر كالصاعقة ، وأخبرته أنها لا تعلم أى شىء عن
تفاصيل الحرب ، وأنها تسمع الأمر منه لأول مرة ..

ويومها بكى (أبو يعقوب) منهاراً ، وأخبرها أن هذا أسوأ
يوم فى حياته كلها ، وأن مفاجأة حرب السادس من أكتوبر
كانت فوق طاقته ، فهذأت (انشراح) من روعه ، وأخبرته
أنها تشعر بالصدمة نفسها ..

ولم تكذ (انشراح) تعود إلى (القاهرة) حتى وصل
استدعاء إلى (إبراهيم) ليسافر وحده إلى (بنر سبع) ..

وفى إبريل ١٩٧٤م سافرت الأسرة كلها إلى (تركيا) ثم
اتفصل (إبراهيم) عنهم وسافر وحده إلى (بنر سبع) ؛ حيث

استقبله (أبو يعقوب) مع طاقم جديد من ضباط المخابرات
الإسرائيليين بعد أن أسقطت الحرب الطاقم القديم ، وهناك
واجهه السؤال الأكثر أهمية :

- كيف لم تشعر ببوادر الحرب فى (القاهرة) ؟!

وكان (إبراهيم) مخلصاً فى جوابه تماماً ، عندما قال :

- لم يشعر أحد ببوادر الحرب .. كل شىء كان يسير
على ما يُرام .. حتى الذين يعملون كضباط فى الجيش
المصرى ، لم يشعروا قط أن الحرب على الأبواب ..

بل لقد فتحت القوات المسلحة المصرية باب التقدم لعمرة
(رمضان) ، وبعض الضباط الكبار حجزوا أماكنهم بالفعل ..

كان جوابه سليماً ومنطقيّاً للغاية ، وكل الجالسين حول
مائدة الاجتماعات يعلمون هذا جيّداً ؛ فقد أجاد الرجال فى
(القاهرة) اللعبة تماماً ، حتى إن كل أجهزة المخابرات
الإسرائيلية ، وحتى الأمريكية ، لم يمكنها التنبؤ بالأمر فى
حينه ، فجاءت الحرب مفاجأة صاعقة للجميع ..

لذا فقد ابتلع الإسرائيليون الجواب ، وأخبروه أن أكثر ما يقلقهم
الآن هو أن يشن عليهم المصريون حرباً أخرى فى هذا
الوقت الذى لم تلتئم فيه جراحهم بعد ، خاصة وأنهم لم
يستعيدوا (سيناء) كاملة ..

وبصوت حمل كل توتره ، قال قائدهم :

- المطلوب منك فى المرحلة القادمة ، هو كشف نوايا المصريين والسعى لمعرفة هدفهم القادم بالتحديد ، ولو نجحت فى إبلاغنا بموعد الحرب القادمة ، قبل اندلاعها بيوم واحد على الأقل ، ستحصل على مكافأة ضخمة .

ثم مال نحوه مستطرذا :

- مليون دولار !!

شهق (إبراهيم) من فرط الدهشة والانبهار ، إلا أنه لم يلبث أن عبر قلقه الخاص ببطء ووسائل الاتصال ، وصعوبة إيصال المعلومات لو نجح فى الحصول عليها ، فى الوقت المناسب ؛ لذا فقد أخبره رجل المخابرات الإسرائيلى أنهم سيمنحونه أحدث جهاز اتصال لاسلكى ، ويمكنه بث رسائله بسرعة خمس كلمات فى الثانية الواحدة ، وطلبوا منه الحفاظ على الجهاز ، واستخدامه لإبلاغهم بالمعلومات أولاً فأولاً ..

وعاد (إبراهيم) وأسرته إلى (القاهرة) هذه المرة ورءوسهم جميعاً تحلم بمكافأة الخيانة الكبرى ..

بالمليون دولار !!

وفى منزلهم الجديد قام (إبراهيم) بتجربة إرسال ، بوساطة الجهاز الجديد ، إلا أن البث لم يكتمل ، بسبب عطل فى أزرار الجهاز ، وحاول (إبراهيم) إصلاح العطل ولكن ذلك لم يكن ممكناً ، دون طاقم أزرار جديد ..

ولأن هذه الأشياء لا يمكن أن تتوافر للمستهلك العادى ، تطوعت (انشراح) بالسفر وحدها إلى (إسرائيل) ؛ لإحضار طاقم أزرار بديل ..

وسافرت (انشراح) دون أن تدري أن وصول جهاز الاتصال الجديد كان البداية ..

بداية نهاية رحلة الخيانة الطويلة ..

فالواقع أن المخابرات المصرية كانت تضع عينيها على عائلة (إبراهيم شاهين) منذ فترة طويلة ، وخاصة مع أسفارهم المتعددة ، وعلامات الثراء التى ظهرت عليهم ، والبذخ الذى ينفق به الابن (نبيل) بالتحديد ..

ومع المراقبة المستمرة كانت الصورة تتضح أكثر وأكثر ..

وكانت الخيانة ترسم صورتها بحروف من طين ..

كل ما كان ينقص الرجال هو الدليل المادى القوى الذى يكفل لهم إلقاء القبض على عائلة الخونة بأكملها ، دون ثغرة واحدة ..

وعندما بدأ (إبراهيم) ذلك البث الذى لم يكتمل ، لم يكن يدرك أنه بذلك يمنح الرجال الدليل الذى ينشدونه ..

الدليل على خيانتته وخيانة أسرته كلها ..

ففى ذلك الحين ، وعلى الرغم من تصور الإسرائيليين أنهم يمتلكون تكنولوجيا غير مسبوقة ، كان لدى (مصر) جهاز جديد ، يعرف باسم (صائد الموجات) له قدرة مذهشة على اصطياد أية موجة قصيرة ، وتحديد مصدر بثها ، بدقة تبلغ واحد فى كل مائة ألف كنسبة خطأ ..

وهكذا علم الرجال أن الجهاز قد وصل إلى (القاهرة) .

وأن عائلة الخونة قد سقطت ..

وفى السادسة من صباح الخامس من أغسطس عام ١٩٧٤م ، تم اعتقال (إبراهيم شاهين) وولديه (نبيل) و(محمد) فى منزلهم ..

والعجيب أن (إبراهيم) لم يقاوم الاعتقال !!

بل ولم يعترض بحرف واحد ، أو يسأل الرجال حتى عن هويتهم ، أو إذن النيابة العامة ، الذى يحملونه !!

وفى استسلام ذليل كتب اعترافه كاملاً ، وذيله بتوقيعه ..

وعندما عادت (انشراح) ، فى السادس والعشرين من أغسطس ، فوجئت برجال المخابرات فى منزلها ، يواجهونها بخيانتها ، فهاجت وماجت ، وصرخت وبكت واستنكرت ، ثم استعطفت وتوسلت وأعلنت استعدادها للتعاون ..

ولكن بعد فوات الأوان ..

وفى الثلاثين من أغسطس ، وبعد أن كشف المصريون موجة الإرسال التى يبث بها الجهاز الجديد رسائله إلى (إسرائيل) ، أرسلوا إلى رجال المخابرات الإسرائيلية رسالة قصيرة تقول :

لا تزعجوا أنفسكم بالاتصال بعميلكم (إبراهيم) و(انشراح) ؛ فقد انكشف أمرهما ، وأصبحا فى قبضتنا .. وإلى جولة أخرى .. المخابرات المصرية .

وهى نفس الرسالة التى قرأها (أهارون ياريف) المستشار الأمنى لرئيسة الوزراء الإسرائيلية - حينذاك - (جولدا مائير) التى أدركت ، كما أدرك الجميع ، أن المصريين قد ربخوا هذه الجولة أيضاً ..

وبتفوق ..

المصراع النووي

الجزء الثالث والأخير

٣- إلا العرب..



وفي الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٧٤م ، أصدرت المحكمة العسكرية حكمها بإعدام (إبراهيم سعيد شاهين) وزوجته (انشراح على موسى) ، وبالسجن خمس سنوات لابنهما (نبيل شاهين) ، وبتحويل (محمد) إلى الأحداث ..

وكان هذا هو الفصل الأخير في قصة الخيانة ، التي دفعت ثمنها عائلة بأكملها ..

العائلة المسمومة !

★ ★ ★

وعلى الرغم من أن العالم العربى كان يبرز تحت نير احتلال رهيب ، فرنسى وبريطانى وإيطالى ، فقد خطّطت (إسرائيل) ، ومنذ قيامها عام ١٩٤٨م ، لمنعه من تقوية جيوشه ، أو تطوير أسلحته ، وبالذات فى أن يسعى لامتلاك قنبلة نووية ..

الشيء الوحيد ، الذى كان يطمئن الغرب و (إسرائيل) ، إلى أن الحلم النووى لن يتحقّق قط ، فى العالم العربى ، هو أن دوله كلها (تقريباً) ، كانت خاضعة لطغيان دول أخرى غربية ، و ...

ولكن فجأة ، قامت فى (مصر) ثورة ..

ثورة الثالث والعشرين من يوليو ، عام ١٩٥٢م ..

صحيح أن الأمر قد بدأ كاتقلاب عسكرى ، أو حركة عسكرية داخلية ، تهدف إلى تطهير الجيش وتطويره ، إلا أن الأمور لم تلبث أن تطوّرت بسرعة ، بحيث لم يمض شهر واحد ، حتى بات من الواضح أن رجال الحركة لن يكتفوا بانقلاب محدود ، ولكنهم يسعون إلى ثورة شاملة ، قادرة على قلب الأوضاع ، فى المنطقة العربية كلها ، رأساً على عقب ..

٣- إلا العرب ..

« ماذا لو أن العرب امتلكوا قنبلة نووية ؟! »

المؤسف أن هذا التساؤل لم يدر فى عقول العرب ، أو حتى فى قلوبهم واستراتيجياتهم ، فى الوقت الذى سيطر فيه تماماً على العقول الغربية والصهيونية ..

فمنذ ظهر السلاح النووى إلى الوجود ، فى نهاية الحرب العالمية الثانية ، اعتبر العالم كله أن من يمتلكه يمكن أن يصعد إلى مصاف الدول الكبرى ، فى حين أن الدول التى تفتقر إليه ، ستظلّ دوماً فى الخانة الثانية ، أو الثالثة ..

ولأن العرب قوة هائلة ، تحتل أفضل مكان فى خريطة العالم ، وتمتلك ثروات هائلة ، لم تستخدم سوى عشرين فى المائة منها فقط ، وفقاً لآخر إحصائية ظهرت إلى الوجود ، لحظة كتابة هذه السطور ، فقد أدرك الغرب أن امتلاك العرب لكيان عسكرى ضخم ، يعنى أن تفقز تلك القوة العربية إلى مصاف الدول المتقدمة ، فماذا لو امتلكت قوة نووية أيضاً ؟!

الفكرة أفزعت الغرب كله ، وأفزعت أكثر (إسرائيل) ، تلك الشوكة المؤلمة المسمومة ، المزروعة فى قلب الشرق الأوسط ..

وهنا انتبه الغرب ، وانتبهت (إسرائيل) إلى الخطر ..
وقررت أن تتحرك ..

وبمنتهى القسوة والعنف كالمعتاد ..

ولأن الإسرائيليين اعتادوا أن يشخصوا بأبصارهم بعيداً ،
وربما أبعد مما نفع نحن بكثير (للأسف) ، فقد أدركوا أن
إنتاج القنبلة النووية ليس أمراً يقتصر على التمويل المادى
أو التطور التقنى ، وإنما يعتمد بالدرجة الأولى على العقول
المفكرة ، والعبقريات النادرة ، القادرة على التعامل مع
العالم النووى ، وتحويله إلى واقع ملموس ..

لذا فقد بدأت (إسرائيل) فى متابعة نشاط العقول المصرية ،
فى شتى المجالات ، وبالذات الفيزيائية والنووية منها ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يرصدوا العبقرية
الفذة (سميرة موسى) ..

و (سميرة موسى) هذه فتاة مصرية ، ولدت فى الثالث
من مارس ، عام ١٩١٧م ، فى قرية (سنبلو) الكبرى ، فى
محافظة الغربية ، وتعلمت فى كتاب القرية ، وهو وسيلة
بدائية بسيطة ، كانت أساس التعليم ، فى ذلك الزمن ، فى
كل قرى (مصر) ، وفى بعض أطراف مدنها أيضاً ..

وفى مرحلتها الابتدائية ، أدرك ناظر مدرسة القرية نبوغ
تلميذته ، فما كان منه إلا أن نصح والدها بالاهتمام بها ،
والعناية بتعليمها وتنقيفها ..

والتقط الأب النصيحة ، وانتقل مع ابنته (سميرة) إلى
المدينة ؛ ليلحقها بمدرسة (قصر الشوق) الابتدائية ، ثم
مدرسة (الإشرافية) الثانوية ، التى كانت تديرها فى ذلك
الوقت ، عبقرية تعليمية فذة ، وهى (نبوية موسى) ..

والدليل على عبقرية (نبوية موسى) ، هو أنها قد أدركت
نبوغ وتفوق تلميذتها (سميرة) ، وبالذات فى مجال الفيزياء
والعلوم ، فأنشأت من أجلها معملًا كاملاً فى المدرسة ؛ لتتيح
لها إجراء تجاربها ، والتفوق أكثر وأكثر فى مجالها ..

ونجحت (سميرة موسى) بتفوق ..

والتحقت بكلية العلوم ، التى تخرجت فيها بدرجة الامتياز ،
مع مرتبة الشرف الأولى ؛ لتصبح الأولى على دفعتها ،
وتجذب أنظار الكل بلا استثناء ..

والعجيب أن مجلس الجامعة ، على الرغم من هذا ، قد
رفض بإصرار تعيينها فى هيئة التدريس ، باعتبارها أنثى ،
والتدريس - فى ذلك الوقت - كان قاصراً على الرجال وحدهم
داخل الجامعة ..

ولكن (سميرة) رفضت الاستسلام لهذا التعت غير المنطقي، وتمسكت بحقها في التعيين، وأزرها أستاذها الدكتور (على مشرفة)، الذي تقدم باستقالته، أو هدد بتقديمها، لو تم رفض تعيين (سميرة) ..

وانتصرت (سميرة موسى) هذه المرة ..

وأصبحت أول معيدة في كلية العلوم ..

ومن جامعة (فؤاد الأول) (القاهرة حالياً) حصلت (سميرة موسى) على درجة الماجستير، ثم سافرت إلى (إنجلترا)، للحصول على درجة الدكتوراه ..

وفي (إنجلترا)، أذهلت عالمة المصرية العبقريّة الجميع، عندما أثبتت نبوغاً مدهشاً، جعلها تحصل على درجة الدكتوراه في سبعة عشر شهراً فحسب ..

وبعد حصولها على درجتها، تلقت (سميرة) عشرات الدعوات، لزيارة المعامل، في (إنجلترا) و(أمريكا)، ولنشر أبحاثها واختراعاتها وابتكاراتها هناك ..

وانذهل علماء البلدين بأبحاثها، وبناتجها المذهلة، وبخاصة تلك الخاصة بالنظائر المشعة، وإمكانية إنتاج الطاقة الذرية من معادن رخيصة ..

وبكل انبهار، كتب أحد العلماء عنها، قائلاً:

- تجارب (سميرة موسى) المدهشة، قادرة على تغيير وجه العالم، بل والإنسانية كلها، وكل ما تحتاج إليه هو بعض المعونة والتمويل فحسب ..

وخفقت قلوب الإسرائيليين قلقاً، لعبارة ذلك العالم الشهير، ذي الأصول اليهودية، والذي انبهر بتجارب (سميرة)، دون أن ينتبه إلى ما تمثله من خطر رهيب، على أمن واستقرار ومستقبل (إسرائيل) ..

وفي ذلك اليوم تقريباً، اتخذت المخابرات الإسرائيلية قرار التخلص من أول عبقريّة عربية مصرية نووية ..

وفي الولايات المتحدة الأمريكية، تلقت (سميرة موسى) عدة عروض مغرية للغاية، للتخلي عن جنسيتها المصرية، والحصول على الجنسية الأمريكية؛ لتعمل وتقيم هناك إلى الأبد ..

كانت العروض تغني المال الوفير، والإمكانيات العلمية العملية اللامحدودة، والتمويل المفتوح ..

ولكن (سميرة) رفضت كل هذا ..

وبمنتهى الإصرار ..

رفضت أن تمنح عقلها وعبقريتها ونبوغها إلى أية دولة أخرى ، بخلاف (مصر) ..

و (مصر) وحدها ..

وهنا تأييد القرار ..

وتم وضعه موضع التنفيذ ..

و ذات صباح ، وبينما كانت في طريقها إلى أحد المعامل الذرية في (كاليفورنيا) ، انقضت سيارة ضخمة على سيارتها ، وارتطمت بها ودفعتها خارج الطريق ؛ لتهوى في أحد الوديان ، وتتحطم في عنف ..

ولقيت (سميرة موسى) مصرعها ..

وخسرت (مصر) ، وخسر العالم العربي كله عبقرية فذة ، وخطوة كان يمكن أن تصنع فارقا لا محدودا ، في لعبة الصراع النووي ..

في الجانب العربي على الأقل ..

وبعد مصرع (سميرة موسى) ، استرخى الإسرائيليون ،

واطمأنوا إلى أن رحلة إنتاج القنبلة النووية العربية أصبحت أطول ..

أطول بكثير ..

ولسبب ما ، كانوا على حق في تفكيرهم هذا ، فمع تطور الأمور ، واندفاع الثورة المصرية في تأييد كل الحركات التحررية ، في كل مكان في العالم العربي ، ومع استقلال الدول العربية ، واحدة بعد الأخرى ، وارتفاع نبرة الهجوم على كل النظم الغربية الاستعمارية بدأ الغرب يضع محاذير قوية ، على تصدير التكنولوجيا النووية للدول العربية .

أما السوفيت ، والذين أضفوا على أنفسهم سمة الشعب الحر ، الذي يساعد كل الشعوب الساعية إلى التحرر والتطور ، فقد تجاهلوا تماما رغبات تلك الشعوب ، في اللحاق بالنادى النووي ، ورفضوا رفضا باتا منحها أية تكنولوجيات أو تقنيات نووية ، باعتبار أنها غير قادرة على توجيه ذلك السلاح الهائل ، أو ترشيد استخدامه ..

نفس النبرة استخدمها الغرب ، وهو يبذل جهده ؛ لمنع كل

الدول العربية من إنتاج أية أسلحة نووية ، فى نفس الوقت الذى راح يتعاون فيما بينه ، على تطوير تلك الأسلحة لديه ..
ولدى (إسرائيل) أيضا ..

وبدا العالم العربى يتوتر ، مع تلك التفرقة الواضحة السخيفة ..

وفى عام ١٩٦٩م ، فوجئ الرئيس (جمال عبد الناصر) بأحد المسنولين الكبار ، من دولة عربية مجاورة ، يحضر إلى (القاهرة) ويخبره أنه يحمل مبلغاً رهيباً من المال ، وأنه فى طريقه إلى دولة أجنبية ؛ لشراء قنبلة نووية ..

واتدهش الرئيس (جمال عبد الناصر) بشدة ، وقضى وقتاً أطول مما ينبغى ؛ ليشرح للمسنول العربى الكبير ، أن القنبلة النووية لا تشتري بالمال ؛ لأنها ليست مشكلة اقتصادية أو مالية ، وإنما هى مشكلة سياسية استراتيجية بحتة ، وأن كل أموال الدنيا لا يمكنها أن تشتري خيطاً نووياً ، من قبل جهة يرفض الغرب والشرق معا منحها ذلك السلاح الرهيب ..

وهنا فقط ، أدرك المسنول الكبير الحقيقة ..
الغرب لن يسمح لنا أبداً بامتلاك قنبلة نووية ..
ربما يسمح لـ (أوروبا) ..

و (آسيا) ..

وحتى (إسرائيل) ..

إلا العرب ..

وحدهم العرب ، ينبغى أن يظلوا فى المرتبة الثانية ..
أو الثالثة ..

أو حتى العاشرة ..

والعجيب أن العرب أنفسهم قد أدركوا هذه الحقيقة ..
واستسلموا لها ..

ثم فجأة ، كسر (العراق) القاعدة ..

وبقرار سياسى ، وإرادة منفردة ، وتحذ سافر لكل قواعد الغرب والشرق ، قرّر أن ينشئ مفاعلاً نووياً ..
وأن ينتج قنبلة نووية ..

وبالفعل ، بدأ (العراق) فى إقامة مفاعله النووى (أوسيراك) ، وبدأ فى عقد الصفقات ، فى سرية تامة بقدر الإمكان ، للحصول على الخامات اللازمة ، والمواد الدقيقة ، والماء الثقيل ، واليورانيوم المخصَّب ، وكل ما يلزم لإنتاج القنبلة النووية العربية الأولى ..

وعرفت (إسرائيل) ..

وجنَّ جنونها ..

وبإيقاع محموم ، راحت تجمع كل المعلومات الممكنة ، عن المشروع النووى العراقى ، حتى وقعت فى يدها معلومة بالغة الخطورة ..

(العراق) يستعين بالعالم المصرى (يحيى أمين المشد) ؛ لإدارة مشروعها النووى ، والإشراف على خطوات إنشائه ، وكمشرف فنى على كل ما يتم شراؤه سرّاً ، من كل مكان فى العالم ، من الخامات ، والمواد اللازمة للمشروع ..

والدكتور (يحيى المشد) هذا عالم ذرة نابغة ، مولود فى الحادى عشر من يناير ، عام ١٩٣٢م ، وتلقّى تعليمه فى مدينة طنطا ، وفى كلية الهندسة بجامعة الإسكندرية ، التى تخرّج

فيها عام ١٩٥٢م ، بتقدير امتياز ، مع مرتبة الشرف ، وكان ثالث دفعته ..

وعلى الرغم من أنه مهندس كهرباء ، إلا أنه قد حصل من (موسكو) ، على درجة الدكتوراه ، فى هندسة المفاعلات ، وأصبح متخصصاً فى تصميم المفاعلات النووية ، والتحكّم فيها ، واستخدام الحاسب الآلى فى إدارتها ..

وباعتراف زملائه ، كان الدكتور (المشد) هو العالم المصرى الوحيد ، الذى اهتم حقاً بدراسة تصميمات القنبلة النووية ، وتكنولوجية تصنيعها ، حتى قيل إنه كان صاحب أول مدرسة علمية فى المفاعلات النووية ..

وبعد عودة (المشد) من (موسكو) ، تم تعيينه فى هيئة الطاقة الذرية فى (أنشاص) ، فى قسم المفاعلات النووية ؛ ليسافر بعدها إلى (النرويج) ، ويعود خبيراً محنكاً فى مضماره ..

لهذا وقع عليه اختيار (العراق) ؛ لتنفيذ مشروعها النووى ..

ولهذا أيضًا ، أدركت المخابرات الإسرائيلية أنه يمثل خطرًا
داهمًا ، على الكيان الصهيوني كله ..

وتقرر إزاحته عن الطريق ..

وبأى ثمن ..

وفي مساء الخميس ، الثالث عشر من يونيو ، عام ١٩٨٠ م ،
وفي أثناء رحلة لاختيار بعض المواد من (فرنسا) ، وعلى
عكس حادثة السير المفتعلة ، لسيارة (سميرة موسى) ، تم
اغتيال الدكتور (يحيى المشد) في حجرته ، بفندق (ميريديان)
(باريس) ..

وظفرت (إسرائيل) والقوى الغربية بعالم ذرة آخر ..

ولكن البرنامج النووي العراقي استمر ..

وهذا أمر طبيعي ..

فمن المستحيل أن يتوقف مشروع ضخم كهذا ، على فرد
واحد ، مهما بلغت أهميته ..

وتواصل العمل ، في المفاعل الذري العراقي (أوسيراك) ..

وهنا ، لم يجد الإسرائيليون أمامهم سوى اللعب بوقاحة ،
كعادتهم في الأمور المماثلة ..

وفي السابع من يونيو ، عام ١٩٨١ م ، اخترقت الطائرات
الإسرائيلية المجال الجوي العراقي ، وقصفت المفاعل النووي
(أوسيراك) ..

وهلّل الغرب لنسف المفاعل النووي العراقي ..

ومشروع القنبلة النووية العراقية ..

والعربية ..

ونسى (العراق) أو تناسى مشروعه النووي ..

ولكن الغرب لم ينس أبدًا .

وفي الوقت الذي راح فيه المخزون النووي الإسرائيلي
يتراكم ، انطلقت القوة الأمريكية والبريطانية الغاشمة والبلطجية
تدك (العراق) ، بحجة أنه يمتلك أسلحة دمار شامل ..

والمضحك أنه لو امتلك (العراق) بالفعل ، أسلحة
دمار شامل ، لما جرّوت (أمريكا) أو (بريطانيا) على
مهاجمته ..

ولكنه قاتون القوة ..

وقاتون البلطجة ..

ذلك القانون ، الذى استخدمته الدول العظمى ؛ لقهر إرادتنا
ودحر كرامتنا ؛ لأننا لم نتخذ الخطوة الصحيحة ، فى الوقت
الصحيح ، لدخول حلبة الصراع ..

الصراع النووى ..

الرهييب .

ماذا تقترح ؟!

صديقى القارئ ..

هذه السلسلة غير تقليدية ..

إنها أول سلسلة ، فى العالم العربى ، تقدم لك أسرار
عالم الأسرار ..

أول سلسلة باللغة العربية ، تكشف أمامك ، غموض
أقوى عالم ..

عالم الجاسوسية ..

ولكى تظل السلسلة غير تقليدية ، فلا بد أن تشاركنا
فيها برأيك ..

باقتراحك ..

بمفهومك ..

أخبرنا ، ما الذى أعجبك أكثر فيها ؟!

روايات مصرية الجيب

حرب الجواسيس

و. نبيل فاروق

من ملفات الجاسوسية الطالية

قلب لعدو

قصة واقعية



ماذا تقترح

٧٦

أى جزء منها أثار اهتمامك وانتباهك؟!

وما الذى تقترح إضافته إليها؟!

موسوعة الجاسوسية؟!

سينما الجاسوسية؟!

تاريخ الجاسوسية؟!

مشاهير عالم الجاسوسية؟!

أم ماذا؟!

اقترح ..

وسندرس اقتراحك ، و

وربما يجعلنا هذا أفضل ، إن شاء الله (العلى القدير)

و. نبيل فاروق

● انتشر الضباب كالمعتاد ، فى العاصمة البريطانية (لندن) ، فى تلك الفترة الهادئة ، من أوائل الثمانينات ، من القرن العشرين ، وأحاط بمبنى المخابرات البريطانى ، المعروف باسم (إم آى - ٦) ، والذي بدا من الخارج أشبه ببناء ساكن مهجور ، على الرغم مما اكتظ به من نشاط منظم فى الداخل ، وبالذات فى ذلك اليوم ؛ حيث بدا مدير المخابرات فى حالة نادرة من التوتر والانفعال ، وهو الذى اشتهر دوماً بهدونه الأسطورى ، وهو يدعو نائبه ورجاله ، الذين يحتلون كل المناصب القيادية فى الجهاز ، إلى اجتماع خاص غير دورى ، أطلق عليه يومها صفة : « عاجل وسرى وخطير للغاية .. »

وفى تلك القاعة الصغيرة ، فى الطابق الثانى من المبنى ، والمخصصة للاجتماعات على مستوى القيادة ، وحول مائدة بيضاوية بسيطة ، اجتمع الرجال ، وراحوا كلهم يتطلعون ، فى لهفة وفضول وقلق مبهم ، إلى مديرهم ، الذى جلس على رأس المائدة ، وإلى جواره نائبه وذراعه اليمنى ، وموضع ثقته الأول (تيم سيلبى) ..

ولثوان ، لاذ مدير المخابرات البريطانية بصمت مهيب ، وقد انعقد حاجباه على نحو مقلق ، قبل أن يتبادل بضع كلمات هامسة مع (سيلبى) ، الذى انتقل إليه ذلك الشعور بالتوتر ، وهو يدير عينيه فى وجوه الآخرين ، الذين راحت قلوبهم تخفق فى لهفة ، وانطلقت عقولهم تبحث عن السبب الجوهري ، لهذا الاجتماع العاجل ، والسرى ، والخطير للغاية ..

وقبل أن تضع أذهانهم عشرات الاحتمالات الافتراضية ، ارتسمت صرامة غاضبة على وجه المدير ، وهو يعتدل فى مجلسه ، ويدير بصره فى وجوههم بدوره ، ثم يقول :
- بيننا جاسوس سوفيتى أيها السادة .

العبارة تفجرت كقنبلة مدوية ، فى القاعة الصغيرة ، على نحو لم يحدث من قبل ، مما أرسل رجفة عجيبة فى أجساد الجميع ، وجعل أحدهم يهتف فى دهشة بالغة :

- جاسوس سوفيتى هنا ؟! فى (إم آى - ٦) .

ضرب المدير سطح مائدة الاجتماعات براحته ، وهو يقول :

- بل هنا أيها السادة .. فى هذه القاعة .

العبارة الأخيرة بدت أشبه بألف ألف قنبلة ، تفجرت فى أعماق أعماق الحاضرين ، على نحو انتفضت معه أجسادهم فى عنف ، واتسعت لها عيونهم فى ارتياح ، وهتف بعضهم :

- هنا ؟! مستحيل !!

ثم اندفع أحدهم يضيف فى توتر :

- سيدي .. كلنا هنا من صفوة رجال (إم آى - ٦) .. وكلنا نحمل مناصب قيادية ، شديدة الحساسية والخطورة ، ولا ينبغي توجيه اتهام رهيب كهذا إلينا ، دون أدلة دامغة قوية .

تراجع المدير فى مقعده ، قائلاً فى صرامة :

- لا توجد أدلة دامغة .

بدت الحيرة على الوجوه لحظة ، قبل أن يتابع المدير بمنتهى الصرامة :

- ولكن مكتب مكافحة الجاسوسية (إم آى - ٥) ، لديه تلك الأدلة .

عاد القلق يسيطر على وجوههم ، ودارت عينا كل منهم فى وجوه الآخرين ، حاملة ذلك المزيج من التوتر والقلق والرغبة والشك ، قبل أن يتساعل أحدهم ، بكل حذر الدنيا :

- ومن هذا الجاسوس يا سيدي ؟!

مطّ المدير شفّتيه ، قائلاً ، فى شيء من الغضب :

- معلومات (إم آى - ٥) لم تكتمل بعد .. لقد وصلتهم معلومة مؤكدة للغاية ، من أحد رجالهم فى (موسكو) ، تؤكد وجود جاسوس سوفيتي ، فى مجلس قيادتنا هنا ، وأن ذلك الجاسوس يبلغ المخابرات السوفيتية أولاً ، بكل تعليماتنا ، واجتماعاتنا ، وقراراتنا الحيوية جداً ، وأن معلوماته تبلغ حدّاً من الدقة ، لا يمكن أن يتوافر إلا لبعض المشاركين هنا .. فى مجلس قيادة (إم آى - ٦) .

عاد الرجال يتطلعون إلى وجوه بعضهم فى توتر ، فتابع المدير بكل الصرامة والحزم :

- ولعلكم تتساعلون الآن ، كيف أخبركم بأمر كهذا ، بدلاً من أن أخفيه ، واحتفظ به سرّاً ، حتى يتم إسقاط الجاسوس ؟!

لاذ الجميع بالصمت ، فيما عدا (سيلبي) ، الذى تساعل فى حذر :

- هذا يدهشنى فى الواقع يا سيدي .

مال المدير إلى الأمام ، قائلاً في صرامة :

- ستزول الدهشة ، لو علمتم أن الأمر قد بلغ جلالة الملكة شخصيًا ، وأن جلالته قد اجتمعت برئيس الوزراء ، الذي اتخذ قراره بإيقافكم جميعًا عن العمل ، اعتبارًا من هذه اللحظة .

تراجع (سيلبي) بمنتهى الدهشة ، في حين سرت مهمة عصبية بين الرجال ، عبر عنها نائب المدير بقوله :

- سيدي .. من واجبنا بالطبع أن نطيع كل قرارات رئيس الوزراء ، وكل ما تراه جلالة الملكة ، التي نعمل تحت رايته وفي خدمتها ، ولكن اسمح لي أن أقول آسفًا ، إن هذا القرار مستحيل التنفيذ .

اتخذ حاجبا المدير ، في صرامة مستترة ، ولكن (سيلبي) تابع في شجاعة :

- فكل رجل ، من الجالسين في هذه القاعة ، يدير إدارة كاملة ، تتولى عددًا من القضايا المهمة بالغة الخطورة ، وفي جعبته أسرار عديدة ، لا يمكن التغاضي عنها لحظة ، وإلّا فسد العمل كله ، وخسرنا الكثير من العمليات والعلماء ..

قال المدير في صرامة :

- لقد درست هذا الاحتمال أيضًا ، مع السيد رئيس الوزراء ، ووجدنا أننا ، وعلى الجانب المقابل ، لا يمكن أن نغامر باستمرار العمل في وجود شك كبير ، حول حقيقة انتماء قادة (إم آي - ٦) ، لذا فقد قررنا نقل السلطة مؤقتًا ، إلى الصف الثاني من قيادات كل الإدارات ، مع التحفظ على القيادات الحالية ، ومنعها من مغادرة المكان ، أو الاتصال بأي جهة كانت ، قبل أن يحسم ذلك الرجل في (موسكو) الأمر ، ويخبرنا من هو ذلك الجاسوس بالضبط .

أوما (سيلبي) برأسه متفهمًا ، وهو يغغم :

- قرار حكيم بحق يا سيدي .. بهذا يتواصل العمل دون انقطاع ، ونجد الفرصة في الوقت ذاته ؛ لاستجواب الجميع .

قال أحد القادة في غضب :

- تتحدث وكأنك لن تواجه الاستجواب مثلنا ، يا سيدي (سيلبي) !

أجابه (سيلبي) ، في سرعة وحزم :

- بل إنني أصرّ على أن أكون أول من يتم استجوابه ، وفحص كافة ملفاته .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يقول فى صرامة :

- وسأفعل هذا بنفسى .. وفورا .

نطق عبارته الصارمة هذه ، على نحو يوحى بأن الاجتماع قد انتهى ، ثم ضغط زرّاً أمامه ، حضر على إثره رئيس أمن المبنى ، مع فريق من رجاله ، وأشار إليه المدير فى حزم ، قائلاً :

- قادتنا ضيوف لديك يا رئيس الأمن .. نفذ الأوامر الصادرة بشأنهم فوراً .

كان الغضب يمتزج بشعور عارم بالمهانة ، فى أعماق الرجال ، إلا أن عملهم كمحترفين ، فى هذا المضمار ، جعلهم ينفذون الأمر فى صمت واستسلام ، ودون الاعتراض بكلمة واحدة ، وتبعهم (سيلبى) على النحو نفسه ، لولا أن استوقفه المدير ، قائلاً فى صرامة :

- انتظر يا (سيلبى) .

بقى نائب المدير وحده ، حتى انصرف الآخرون ، ووقف فى احترام صامت ، ينتظر أوامر مديره ، الذى مطّ شفتيه بضع لحظات فى مرارة ، قبل أن يقول :

- ما رأيك فيما حدث ؟!

وزن (سيلبى) كلماته جيّداً ، وهو يقول :

- إنه كارثة يا سيّدى .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، وزفر زفرة ملتهبة ، من أعماق أعماق صدره ، قبل أن يقول :

- وأية كارثة !

ثم نهض من مقعده ، وراح يدور فى القاعة كالأسد الجريح ، وقد عقد كفيه خلف ظهره ، قبل أن يضيف فى صرامة شديدة :

- ما يحقنى أكثر هو أن يتوصل (إم آى - ٥) إلى هذا ، قبل أن نكشفه نحن بأنفسنا .

اعتدل (سيلبى) فى وقفته ، قائلاً فى حزم :

- لم يفت الأوان بعد يا سيّدى .

التفت إليه المدير ، يسأله فى اهتمام ملهوف :

- ماذا تعنى بالضبط يا (سيلبى) ؟!

أجابه فى سرعة :

- أعنى أننا ، كمسنولين عن التجسس الخارجى ، نمتلك حرية تنقل ، لا يمتلكها (إم آى - ٥) بالتأكيد .

قالها ، ثم راح يطرح وجهة نظره وخطته ..
والواقع أنها كانت خطة قوية ومثيرة ..
مثيرة للغاية ..



٢ - الجليد ..

● على الرغم من الجليد المنهمر بكثافة ، على العاصمة
السوفيتية (موسكو) ، بدا رجل المخابرات السوفيتي
(يوري كارباكوف) مبتهجا ، على نحو يتنافى مع طبيعته
المعتادة ، وهو يراجع البرقية الشفوية السرية ، التي
وصلته منذ دقائق قليلة ، من قلب (لندن) ، قبل أن يطويها
في عناية ، ويدسها في جيبه ، ويلتفت إلى زميله ، (إيفان
جوديسكي) ، قائلا :

- أظننا قد كشفنا أخيراً مصدر التسريب ، في خزان معلوماتنا ،
الذي أدركنا وجود ثقب ما فيه ، منذ فترة من الزمن .

مط (جوديسكي) شففيه ، في برود مستفز ، وهو يشعل
سيجارة قصيرة سوفيتية الصنع ، ذات رائحة نفاذة مزعجة ،
قائلاً :

- هل أفلحت خطتك ؟!

أشار (كارباكوف) بيده ، وهو ينهض من خلف مكتبه ،
مجيئاً :

- أكثر مما نتصور .

مط (جوديسكى) شفتيه مرة أخرى ، قائلاً :

- كنت أظنها أكثر سذاجة ، من أن تصلح للإيقاع بمحترف .

ضحك (كارباكوف) ، وهو يلتقط معطفه ، قائلاً :

- هذا يثبت أن البريطانيين هم السذاجة نفسها .

هز (جوديسكى) كتفيه ، دون أن يجيب ، ونهض يرتدى معطفه بدوره ، وغادر الاثنان مكتبهما معاً ، دون كلمة إضافية ، واتجها مباشرة إلى واحدة من سيارات جهاز المخابرات السوفيتى ، وقال (كارباكوف) لأحد رجاله ، قبل أن يذلف إليها :

- اتبعونا .. لقد حانت اللحظة .

لم يكد الرجل يسمعه ، حتى أسرع إلى عربتين محملتين بالجنود ، وأشار إلى سائقيهما ، قائلاً :

- هيا .

أما (جوديسكى) ، فقد ظل صامتاً ، حتى جمعه السيارة

مع (كارباكوف) ، وانطلقت بهما معاً ، وخلفها العربتان المحملتان بالجنود ، وقال فى برود :

- أنت واثق مما ستفعله ؟!

أشار (كارباكوف) بيده ، قائلاً :

- الأمر لا يحتمل الخطأ يا رجل .. إن شكوكنا تحوم حول (جوزيف إيتانوف) بالفعل ، منذ فترة ليست بالقصيرة ، وما دام البريطانيون قد حصلوا على المعلومات ، التى لم نبلغ بها سواه ، فهذا يحسم الأمر تماماً .. إنه جاسوس للبريطانيين .. ما فى هذا شك .

أوما (جوديسكى) برأسه مؤيداً ، وغمغم :

- نعم .. ما فى هذا شك .

لاذ بعد قوله بالصمت التام ، والموكب العسكرى الصغير يقطع بهما شوارع (موسكو) ، حتى توقف عند مبنى صغير من طابقين ، فاستل (كارباكوف) مسدسه ، قائلاً فى جذل عجيب :

- الآن تبدأ المتعة .

ووثب من السيارة ، وهو يشير إلى الجنود فى العربتين ،
بالانتشار حول المبنى الصغير ، ومحاصرته بمنتهى الدقة
والصرامة ، ثم انتقى مجموعة من الجنود ، هاتفًا :

- اتبعونى .

اندفع الجيش المحدود يحيط بالمبنى ، ويفتحه بمنتهى
العنف ، وتعالى وقع الأحذية العسكرية الثقيلة على درجات
السلم ، حتى الطابق الثانى ، الذى لم يكد يبلغه (كارباكوف) ،
حتى أطلق رصاصات مسدسه على رتاج الباب الوحيد فيه ،
وهو يهتف :

- لا تنسوا .. أريده حيًّا .

كان سكان المنزل قد استيقظوا جميعهم ، مع ضوضاء
الافتحام العنيف ، وملاً الخوف ملامحهم ، وبخاصة
(جوزيف إيتانوف) نفسه ، الذى راح يرتجف كطير مبتل ،
داخل معطفه المنزلى ، وهو يقول فى انزعاج شديد :

- الرفيق (كارباكوف) ؟! ماذا حدث أيها الرفيق ؟! ولماذا
تقتحم منزلى على هذا النحو ؟! إننى أحد رجال الـ (كى .
جى . بى) ، وأحد رجال الحزب المخلصين ، و ...

ألقى (كارباكوف) فوهة مسدسه بصدغ (إيتانوف) ،
وجذب إبرته ؛ ليدل على جدية وخطورة الموقف ، وهو
يقاطعه قائلاً فى غلظة :



- معطف منزلى حريرى ؟! أريدك هذا الترف متناسبًا ،
مع عضو بارز فى الحزب الشيوعى ؟!

امتقع وجه (إيتانوف) ، وشهقت زوجته فى رعب ،
وهى تضم طفلها إلى صدرها ، وزوجها يحدق فى وجه

(كارباكوف) ، قبل أن يقول ، فى صوت أكثر شحوباً من وجهه :

- إنك لست هنا ، بسبب معطفى المنزلى الحريرى ، أيها الرفيق (كارباكوف) .

أجابه (كارباكوف) بسرعة :

- هذا صحيح .

ثم اخترقت ملامحه الغليظة ابتسامة ساخرة ، وهو يضيف .

- لقد أتيت لأحمل لك تحيات البريطانيين .

عند سماعه الكلمة الأخيرة ، لم يمتنع وجه (إيتانوف) فحسب ..

لقد غابت منه الدماء تماماً ، حتى لقد بدا وكأن الرجل قد لفظ أنفاسه الأخيرة بالفعل ، منذ ثلاث ساعات على الأقل ..

أما عيناه ، فقد زاغتا ، ودارتا فى محجريهما ، مع تلك الارتجافة العنيفة المؤلمة ، التى سرت فى كل خلية من خلاياه ، والتى هوى معها قلبه بين قدميه ، وغص بها حلقه ، على نحو لم تنجح معه كلمة واحدة ، فى الانفلات من بين شفثيه ، مما منح (كارباكوف) الفرصة ليضيف :

- يقولون : إن المعلومات الأخيرة ، التى أرسلتها إليهم ، قد أفادتهم كثيراً .

وعندئذ صرخت زوجة (إيتانوف) ، بكل رعب الدنيا ، وقد أدركت ما يعنيه هذا :

- (جوزيف) !

استدار إليها زوجها ، بوجه ينافس وجوه الموتى ، وعينين احمرتا كالدم ، وهو يحاول أن يقول شيئاً ..

أى شىء ..

ولكن الكلمات كلها اختنقت فى حلقه ، وعجزت عن تجاوز شفثيه ، فأدار بصره فى يأس إلى (كارباكوف) ، وبذل جهداً خرافياً ؛ ليقول فى خفوت شديد :

- ليس لها شأن بما حدث .

نقل (كارباكوف) بصره إلى المرأة الشقراء المذعورة ، وإلى الطفلين اللذين اتكمشا بين ذراعيها فى رعب ، قبل أن يقول ، بمنتهى الغلظة ، وأسلوبه الخشن اللفظ :

- هذا سيتوقف على تعاونك .

سألت الدموع من عيني (إيتانوف) ، وهو يلقي نظرة أخرى ، على زوجته وطفليه ، ثم يخفض عينيه ، متمماً :
- أنا رهن إشارتكم .

والتمعت عينا (كارباكوف) في قوة ..

فقد كان من الواضح أنه قد انتصر على البريطانيين هذه المرة ..

انتصر انتصاراً ساحقاً ..

« السوفيت أوقعوا برجلنا في (موسكو) .. »

نطق مدير مكتب (إم آى - ٥) العبارة في غضب ، داخل مكتب رئيس الوزراء البريطانى ، فى حضور مدير مكتب (إم آى - ٦) ، ونائبه (تيم سيلبى) ، الذى ملأت الدهشة وجهه ، وهو يهتف :

- بهذه السرعة ؟!

استدار إليه مدير (إم آى - ٥) ، وهو يقول فى حدة :

- بل قل : فى هذا التوقيت ؟!

تراجع رئيس الوزراء البريطانى فى مقعده ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وهو ينقل بصره بين الرجال ، فى اللحظة التى هتف فيها مدير (إم آى - ٦) فى غضب :

- ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

أجابه مدير (إم آى - ٥) فى حدة :

- ابحت أنت عن تفسير آخر .. لقد أبلغناكم ما أرسله رجلنا (جوزيف إيتانوف) بشأن وجود جاسوس سوفيتى ، فى مجلس قيادتكم ، وبعدها مباشرة ، وقبل أن نحصل على اسم ذلك الجاسوس ، ينقض السوفيت على (إيتانوف) ، ويعتقلونه فى مكان سرى .

احتقن وجه مدير (إم آى - ٦) ، وهو يقول فى غضب :

- هل تعنى أن ...

قاطعته رئيس الوزراء فجأة فى صرامة :

- الرجل لا يعنى شيئاً .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف بصرامة أكثر :

- ولكنه وأنا نريد تفسيراً منطقياً لما حدث ، قبل أن نوجه أية اتهامات .

هم مدير (إم آى - ٦) بقول شىء ما ، ولكن نائبه
(سيلبى) اندفع قاتلاً فى حزم :

- أنا سأخبرك ما يحسم الأمر تماماً ، يا سيادة رئيس
الوزراء .

والتفت إليه الجميع فى اهتمام ؛ ليلقى هو ما لديه ..
وكان ما لديه مدهشاً ..

بحق .



٣- كيف ؟!

● خيم الصمت التام على حجرة رئيس الوزراء البريطانى ،
وهذا الأخير ، مع مديرى جهازى المخابرات (إم آى - ٥) ،
و (إم آى - ٦) ، يتطلعون إلى (تيم سيلبى) ، نائب مدير
(إم آى - ٦) ، الذى التقط نفساً عميقاً ، قبل أن يقول فى
حزم :

- من الناحية العملية ، لا يمكن أن نكون مسئولين ، عن
سقوط رجل مكتب (إم آى - ٥) فى (موسكو) ؛ ففور علمنا
بما أبرق به ، عن وجود جاسوس فى مجلس قيادتنا ، ثم التحفظ
فوراً على كل مديرى مكتبنا ، ومنعهم من الاتصال بأية جهة .

قال مدير (إم آى - ٥) فى غضب صارم :

- وماذا لو أن آخرين أمكنهم هذا ؟!

سأله (سيلبى) فى سرعة :

- أمكنهم ماذا ؟!

قال الرجل فى حدة :

- أمكنهم الاتصال بالسوفييت ، والإيقاع برجلنا .

هز (سيلبي) رأسه ، قائلاً فى هدوء مستفز :

- هذا مستحيل تماماً !

لوح مدير (إم آى - ٥) بسبأبته فى وجهه ، صائحاً :

- هل تريد أن تقول : إنه من المستحيل أن تتسرب الأسرار من بين أيديكم ، على الرغم من وجود جاسوس بين قيادتكم ؟!

عاد (سيلبي) يهز رأسه ، وهو يقول :

- بل أريد أن أقول : إنه من المستحيل أن نوقع برجل ، نجهل هويته تماماً .

تراجع مدير (إم آى - ٥) بحركة حادة ، كمالو أن جواب (سيلبي) قد أصابه بصفعة قاسية ، فى حين انعقد حاجبا مدير (إم آى - ٦) بشدة ، واعتدل رئيس الوزراء البريطانى على مقعده ، متسائلاً فى اهتمام شديد :

- ماذا تعنى يا سيد (سيلبي) ؟!

أجابه (سيلبي) ، فى هدوء حازم :

- أعنى أننا نعظم بوجود جاسوس سوفيتى ، يعمل فى قلب (موسكو) ، لحساب (إم آى - ٥) ، ولكنهم لم يخبرونا بأية تفاصيل عنه على الإطلاق ، فكيف يمكن أن نوقع به هكذا ؟!

تألفت عينا رئيس الوزراء فى إعجاب ، عبّر عنه بكلماته ، وهو يتراجع فى مقعده ببطء ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، قائلاً :

- أنت على حق تماماً .

مطّ مدير (إم آى - ٥) شفّتيه ، مغمغماً فى عصبية :

- ربما كان على حق ، ولكن ..

قاطعته رئيس الوزراء فى صرامة :

- لا يوجد لكن .. هذا يحسم الأمر تماماً .

تدخل مدير (إم آى - ٦) ، قائلاً :

- المشكلة لا تكمن الآن فى سقوط ، رجل (إم آى - ٥) فى (موسكو) ، وإنما فى عدم استطاعتنا ، بعد حدوث هذا ، الحصول على اسم الجاسوس السوفيتى فى قيادتنا .

أشار رئيس الوزراء بيده ، وهو يقول فى حزم صارم :

- لو أثنى فى موضعك ، لقمت بتغيير القيادات كلها فوراً .

هز (سيلبي) رأسه ، قائلاً :

- هذا لن يحل المشكلة يا سيادة رئيس الوزراء ، بل ربما

يزيدها تعقيداً ؛ فالعمل لدينا يمر بأزمة معوقة بالفعل ، فى غياب القيادات الأساسية ، وعملية إعداد وتأهيل الصف الثانى ، للصعود إلى الصف الأول ، تحتاج إلى وقت طويل ، يمكن أن يستغله السوفيت أسوأ استغلال ، للسيطرة على الساحة كلها .

اتعد حاجبا رئيس الوزراء ، وهو يغمغم :

- حقاً ؟!

تابع (سيلبى) ، دون أن يتوقف عند تعليق رئيس الوزراء :

- لا بد إن من حسم الأمر ، بمنتهى الدقة ، ومنتهى السرعة أيضاً ، حتى تعود الأمور إلى نصابها ، قبل أن يحتل السوفيت الساحة .

بدا الإعجاب واضحاً ، فى صوت رئيس الوزراء البريطانى ، وهو يقول :

- ألدك خطة محدودة فى هذا الشأن ، ياسيد (سيلبى) ؟!

أسرع مدير (إم آى - ٦) ، يقول فى حزم :

- بالتأكيد يا سيادة رئيس الوزراء .. نائبى (تيم سيلبى) لديه خطة عبقرية ، فى هذا الشأن .

ضغط لفظ نائبى هذا ، على نحو مقصود ، وهو يرمى مدير

(إم آى - ٥) بنظرة شامتة ، جعلت هذا الأخير يشيح بوجهه ، مهمماً بكلمات غير مفهومة ، فى حين شدّ (سيلبى) قامته ، وهو يقول فى رصانة :

- خطتى كانت تعتمد على خداع السوفيت ، وإيهامهم أن جاسوسهم لدينا قد سقط فى قبضتنا ، وأننا نقوم باستجوابه بالفعل ، ولكن بعد سقوط رجل (إم آى - ٥) فى قبضتهم ، قمت بإضافة جزء آخر إلى الخطة ، حتى يبتلع السوفيت الطعم كاملاً ، ونحصل على أفضل ما يمكننا الحصول عليه منهم .

بدا الاهتمام على وجه مدير (إم آى - ٥) ، فى حين تساءل رئيس الوزراء ، فى اهتمام أكثر :

- وكيف هذا ؟!

ارتسمت ابتسامة باهتة ، على شفتى (سيلبى) ، وهو يجيب :

- سنقتنعهم أن جاسوسهم فى مجلس قيادتنا ، قد وقع فى قبضتنا ، ثم سنمنحهم فى الوقت ذاته بديلاً .

ردّ رئيس الوزراء البريطانى ، فى حذر شديد :

- بديلاً ؟!

أجابه (سيلبي) فى سرعة :

- نعم .. سنمنحهم جاسوساً آخر ، أكثر أهمية وخطورة .

ثم عاد يشد قامته ، مضيقاً بمنتهى الحزم :

- أنا ..

وكانت مفاجأة للجميع بالفعل ..

مفاجأة مدهشة ..

نفث رجل المخابرات السوفيتى (إيفان جوديسكى) دخان سيجارته ، برائحته النفّاذة القوية ، فى سماء قبو مبنى المخابرات ، فى قلب (موسكو) ، وهو يسأل زميله (يورى كارباكوف) ، فى برود عجيب :

- هل اعترف ؟!

ابتسم (كارباكوف) فى ثقة ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

- لم يكن يملك سوى هذا .. أنت تعرف وسألنا المدهشة ، وقدرتنا الفريدة ، على إقناع زبائننا ، بالإدلاء بكل ما لديهم .

مطّ (جوديسكى) شفّتيه ، قائلاً بنفس البرود :

- هل ستخبرنى ؟!

ثم أشار بيده ، متسائلاً :

- المهم الآن هو : هل أخبرهم باسم جاسوسنا هناك ، أم أننا قد تحركنا فى الوقت المناسب ؟!

تنهّد (كارباكوف) فى عمق ، قائلاً :

- إنه يؤكد أنه قد أخبرهم بوجود جاسوس خطير ، فى مجلس قيادة (إم آى - ٦) فحسب ، دون أية تفاصيل .

سأله (جوديسكى) فى اهتمام :

- وهل تعتقد أنه صادق فى هذا ؟!

مطّ (كارباكوف) شفّتيه هذه المرة ، وهو يجيب :

- من العسير أن يكذب المرء بأصابع مهشّمة ، وخاصة عندما يدرك أن الوسيلة الوحيدة ، لنجاة زوجته وولديه ، هى الصدق التام .

غمغم (جوديسكى) :

- عظيم .

ولكن (كارباكوف) تابع فى ضيق :

- ولكن هذا لا يقطع القيادة ، التى تصرّ على إنهاء عملية جاسوس (لندن) هذه فوراً ، باعتبار أن مجرد علم البريطانيين بالأمر ، يعرضه إلى خطر داهم ؛ إذ إن أمره سينكشف حتماً ، إن عاجلاً أو آجلاً ، من وجهة نظرهم ، وهم يرفضون المجازفة بمصيره ، تحت أية ظروف .

انعقد حاجبا (جوديسكى) ، وهو يقول :

- إلى هذا الحد ؟!

أوماً (كارباكوف) برأسه إيجاباً ، وقال :

- إنه أفضل وأهم رجالهم ، منذ أكثر من ربع قرن .

ارتفع حاجبا (جوديسكى) بدهشة ، لم تلبث أن تحولت إلى فضول واهتمام واضحين ، وهو يميل نحو (كارباكوف) ، ليقول :

- هل لاحظت أنك لم تخبرنى أبداً باسم جاسوسنا هناك ،

فى قلب مجلس قيادة (إم آى - ٦) ؟!

ولم ينبس (كارباكوف) بحرف واحد ، وإن انطلق ذهنه يسترجع تفاصيل ذلك السر ، الذى اعتبرته المخابرات السوفيتية من أخطر أسرارها ، طوال ربع القرن ..
السر الغامض المثير ..
إلى أقصى حد .



٤- رحلة ذكريات ..

● بدأ الأمر كله فى النصف الثانى من خمسينات القرن العشرين ..

فى تلك الفترة ، وعلى الرغم من الحرب الخفية السرية ، بين جهازى المخابرات ، السوفيتى والبريطانى ، كانت السفارة البريطانية فى (موسكو) تموج بنشاط جم ، فى كل المجالات ، وقد نشط داخلها عشرات الدبلوماسيين الشبان ، لجمع كل المعلومات الممكنة عن السوفيت ، فى كافة الجوانب ، الاجتماعية ، والاقتصادية ، والعسكرية ، والسياسية أيضا ..

ولأن البريطانيين يتميزون بالدقة الشديدة ، وبالتمسك بالروتين والقواعد ، إلى أقصى حد ، كانت رواتب شباب الدبلوماسيين فى سفارتهم منخفضة ، إذا ما قورنت بأسعار الصرف الرسمية ، التى يعترف بها السوفيت ، فى نفس الوقت الذى يمكن أن تساوى فيه الرواتب نفسها ثروة معقولة ، إذا ما تم تحويلها إلى روبلات سوفيتية ، من خلال الأسواق السرية أو السوداء ، كما اصطلح على تسميتها ، فى كل بلاد العالم تقريبا ..

ويمكننا أن نؤكد هنا أن كل الدبلوماسيين الشبان كانوا

يلتزمون بأسعار الصرف السوفيتية الرسمية ، خاصة وأن عقوبة تجاوز هذا كانت تصل إلى الإعدام ، فى تلك الفترة من تاريخ الاتحاد السوفيتى ..

وعلى الرغم من هذا ، كان هناك عدد محدود من أولئك الدبلوماسيين الشبان ، يجازف باللجوء إلى الأسواق السوداء لتغيير العملة ، فى محاولة لزيادة دخله ، أو لادخار بعض راتبه ، على نحو أو آخر ..

ومن بين أولئك المتجاوزين ، كان رجلنا ..

ونستطيع أن نقول هنا : إن السوفيت قد وضعوا أعينهم عليه ، منذ لحظاته الأولى ، فى سفارة (بريطانيا) فى (موسكو) ؛ فقد كان شابا نابها ، تومض عيناه بالذكاء ، ويوحى نشاطه بأنه سيكون له شأن كبير فى المستقبل ..

وهذا ما أكدته الخبراء السوفيت ، فى جهاز مخابراتهم ، بعد أن درسوا ملفه بمنتهى الدقة ..

لذا فقد دفعوا فى طريقه من يهمس فى أذنه ، بأنه ليس من الصير أن يلجأ إلى تلك السوق السوداء ؛ لتغيير راتبه ..

ثم أكد له ذلك الهامس ، أنه سيتولى الجزء الخطير بنفسه ..

ولثلاثة أشهر متصلة ، كان ذلك الهامس يتسلم راتب الديپلوماسى الشاب ، بالجنيهاً الإسترلينية ، ثم ينقده مبلغاً كبيراً من الروبلات السوفيتية ، فى صباح اليوم التالى مباشرة ، وبزيادة تفوق ضعفى ما يمكن أن يحصل عليه ، من خلال التحويلات الرسمية ..

ولقد أخفى الديپلوماسى الشاب هذا عن رفاقه ورؤسائه بالطبع ، ولم يشر إليه بأى حال من الأحوال ، وإن بدأ يستمتع باللعبة ، التى جعلته يكتفى بتحويل نصف راتبه فحسب ، فى الأشهر الأربعة التالية ، ويحتفظ لنفسه بالنصف الآخر بعملة بلاده ، وقد أسعده أن يحقق ذلك الثراء المحدود ، دون أن يتجاوز قواطين بلاده هو ، وليس قواطين الدولة التى يعمل بها ..

وعندما اطمأن السوفيت إلى أنه قد استراح تماماً للأمر ، واعتاد الحصول على ذلك المقابل الفائق ، قرروا الانتقال إلى الخطوة التالية ..

وفى الشهر الثامن ، حصل الهامس على راتب الديپلوماسى الشاب ، وغادر السفارة فى المساء كالمعتاد .. ولكنه لم يعد إليها فى الصباح التالى ..

ولا حتى فى المساء ..

لذا فقد شعر الديپلوماسى الشاب بقلق عارم ، جعله واضح التوتر طوال النهار ، ودائم السؤال عن ذلك الهامس ، على نحو أدهش زملاءه كثيراً ..

وفى نهاية اليوم ، جاءه اتصال قصير من الهامس ..

اتصال اعتذر فيه عن عدم الحضور ، لأسباب خارجة عن إرادته ، ثم طلب من الديپلوماسى الشاب أن يمر على متجر صغير لألعاب الأطفال ، فى قلب (موسكو) ؛ ليلتقط روبلته السوفيتية ؛ بحجة أنه قد منح الجنيهاً الإسترلينية بالفعل لصاحبه ، وليست لديه أية فرصة للمرور به ، خلال الأيام الخمسة التالية ..

ولقد شعر الديپلوماسى الشاب بالقلق بالفعل ، إلا أنه لم يكن لديه خيار آخر ..

إما أن يذهب لالتقاط نقوده ، أو يخسرها لوقت طويل ..

ولقد درس الشاب الموقف ، ثم تعاون قلقه وطمعه ؛ لإقناعه بأنه لا توجد أية مخاطرة فى الموقف ، وأنه فقط سيلتقط نقوده ، ثم ينصرف بأقصى سرعة .. وهكذا ، ذهب الديپلوماسى الشاب إلى متجر الألعاب ..

وعلى الرغم من توتره فى البداية ، فقد سار كل شىء

على ما يرام ، منذ دلف إلى المكان ، وذكر لصاحبه اسم الهامس ، فاستقبله الرجل بالترحاب ، ثم انتحى به جانباً ، وسلمه مظروفاً يحوى الروبلات السوفيتية ، و ...

وفجأة ، وبينما يستعد الديبلوماسى الشاب للانصراف ، أطبقت الشرطة على المكان ..

وبسرعة وعنف ، وجد الشاب نفسه داخل سيارة شرطة ، مكبلاً بالأغلال ، ويحيط به عملاقان غليظان ، تحمل ملامحهما كل الغظة والخشونة ، والسيارة تنطلق به إلى سجن (موسكو) ، بتهمة الاتجار غير المشروع فى العملة ، وهى جريمة تصل عقوبتها إلى الإعدام ..

وانهار الديبلوماسى الشاب تماماً ..

فحتى لو أعلن هويته ، وتشبث بحصانته الديبلوماسية ، فسيغنى هذا إبلاغ سفارته بما ارتكبه ، وضياع مستقبله الديبلوماسى إلى الأبد ..

ولكن من المؤكد أن ضياع المستقبل أهون من ضياع الحياة نفسها ..

لذا فقد اتخذ قراره ، وكل نرة فى كيته تتمزق ألماً ومرارة .. وفى سجن (موسكو) ، وأمام قاضى التحقيقات ، ذى الملامح القاسية ، أعلن الشاب هويته وجنسيته ..

ولكن القاضى لم يبال بما قاله ..

لقد بدا وكأنه حتى لا يسمعه ، وهو يلقي جواز سفره الديبلوماسى جانباً ، ويطلب من رجاله إلقاءه فى السجن ..

واحتج الديبلوماسى الشاب ، وصرخ ، وثار ..

ولكن أحداً لم يهتم بكل ما يفعله ..

وتم إلقاؤه فى السجن بالفعل ..

وهنا بلغ هلعه مبلغه ..

فالسجن الذى ألقوه فيه لم يكن سجنًا عاديًا ، وإنما كان سجنًا من نوع خاص جداً ..

سجن تتمنى الموت ، عن البقاء فيه ليوم واحد ..

فالزنزانة الحقيبة القذرة ، التى ألقوه فيها ، كانت تضم ستة عشر سجيناً آخر ، على الرغم من صغر حجمها ، وكلهم يجلسون على ألواح من الخشب ، تبرز من ثلاثة من جدرانها الأربعة ، ويتطلعون طوال الوقت إلى الجدار الرابع ، حيث باب الزنزانة ، التى يتوسطها تماماً برميل من الخشب ، تنبعث منه رائحة كاد يفقد وعيه منها ، قبل أن يدرك أن البرميل هو المرحاض الوحيد ، لكل سجين فى الزنزانة ، وأنه يتم تفريغه كل أسبوع مرة واحدة فقط ..

أما لماذا يتطلع لكل طوال الوقت إلى الباب ، فهذا ما أدركه ، منذ لحظة دخوله إلى الزنزانة ؛ إذ لم يكد الحارس الضخم يفتح الباب ، وقبل حتى أن يلقي به داخلها ، سمعه يصرخ بالروسية في وحشية :

- أنت لا تنتظر إلى النافذة .

ثم فوجئ به ينقض كالوحش على أحد السجناء ، وينترعه من مكاته ، والسجين المسكين يصرخ معلناً أنه كان يسعل فحسب ، ثم طلب الرحمة ، وانهار ، والوحش الضخم يسحبه في قسوة مخيفة إلى خارج الزنزانة ، التي أغلق بابها بمنتهى العنف .. ومن الخارج تعالت أصوات ضربات وحشية ، ممترجة بصراخ السجين المسكين ، الذي لم تلبث صرخته أن تحولت إلى تأوهات ضعيفة ، قبل أن تسكت تماماً ..

وسأل الشاب في ارتياح عما يحدث ، فأخبره أحد السجناء في رعب ، أن هذا هو مصير أي شخص ، يرفع عينيه ولو لحظة واحدة ، عن تلك النافذة الصغيرة أعلى باب الزنزانة ، والتي يفتحها الحارس المخيف في أية لحظة ، من الليل والنهار ؛ ليظفر بسجين بانس ، أرهقه التعب ، أو هزمه النوم ، فلم يعد ينظر إلى النافذة الصغيرة ، مما يمنحه الحق في عقابه ، وممارسة كل نزعاته السادية معه ..



ويطلب من رجاله إلقاءه في السجن ..

وعلى الرغم من الرعب الشديد ، الذى ملأ كل ذرة من
كيان الديبلوماسى الشاب ، فقد تكرر هذا الأمر ثلاث مرات
فى ذلك اليوم ..

الحارس يفتح النافذة فجأة ، ثم يصرخ :

- أنت لا تنتظر .

وينقض على أحد السجناء ، وينترعه من مكانه إلى الخارج ..

وتتبعث أصوات الضربات والصرخات ..

وبعدها السكون المطبق ..

وكرر فعل طبيعى ، لم يرفع الشاب عينيه عن النافذة لحظة
واحدة ، على الرغم مما يمثله هذا من ألم ومهانة ومرار ..

وقبل أن ينتصف الليل ، أى بعد أقل من خمس ساعات
على سجنه فى هذه الزنزانة الرهيبة ، أصبح الديبلوماسى
الشاب مستعداً للخروج من المكان بأى ثمن ..

ومع كلمة أى ثمن هذه ، حان دور المرحلة التالية من اللعبة ..

فمع منتصف الليل تماماً ، فتح الحارس الوحشى تلك
النافذة الصغيرة فجأة ، وصرخ :

- أنت لا تنتظر .

وعلى الرغم من أن الديبلوماسى الشاب لم يرفع عينيه
عن النافذة الصغيرة لحظة واحدة ، فقد انقض على الحارس
الضخم ، وانتزعه من مكانه ، ودفعه خارج الزنزانة ..

وهنا اتهار الديبلوماسى الشاب ..

تماماً .



٥- الترويض ..

● « إنك لم تخبرني بعد ، من رجلنا في قلب المخابرات البريطانية ! »

ألقي رجل المخابرات السوفيتي (إيفان جوديسكي) السؤال ، على مسامع زميله (يوري كارباكوف) ، في فضول ولهفة ، يتعارضان تمامًا مع طبيعته الباردة المتحفظة ؛ لينتزع هذا الأخير من ذكريات ما قرأ وعرف ، عن أسلوب تجنيد ذلك البريطاني ، منذ ما يقرب من ربع القرن ، للعمل لحساب المخابرات السوفيتية ، فالتفت إليه (كارباكوف) ، وتطلع إليه بنظرة خاوية ، قبل أن يقول :

- لم يحن وقت هذا بعد .

اتعقد حاجبا (جوديسكي) ، وهو يقول :

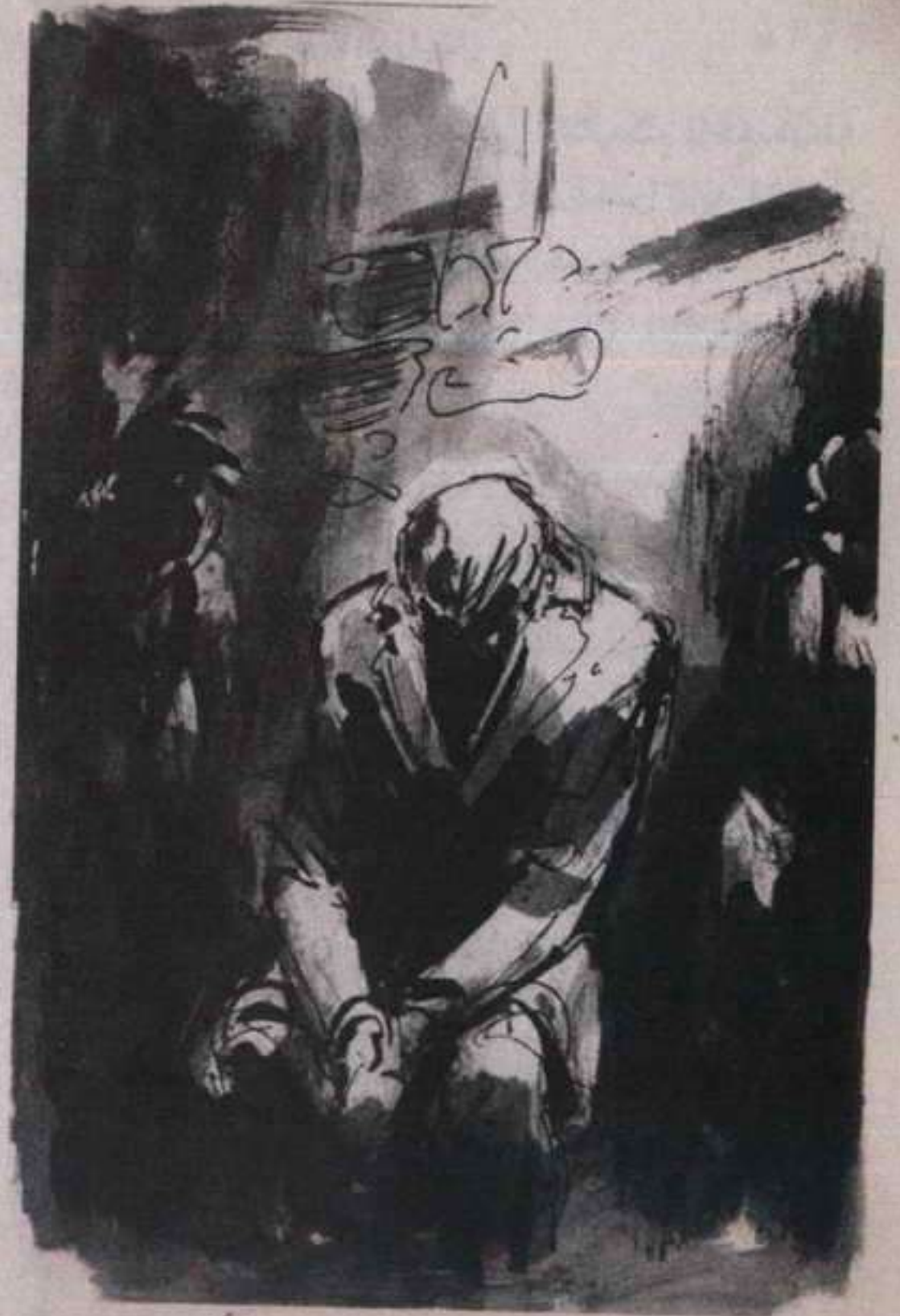
- المفترض أننا في رتبة واحدة .

أجابه (كارباكوف) في حزم :

- أنت تعلم أن هذا لا يصنع فرقًا .

تراجع (جوديسكي) ، متممًا :

- بالتأكيد .



وهنا انهيار الدبلوماسي الشاب .. تماما ..

وصمت لحظة ، نفث خلالها دخان سيجارته السوفيتية ،
قبل أن يسأل :

- أعتقد أنه لم يستسلم لعملية تجنيده هذه بسهولة .

هزّ (كارباكوف) رأسه ، قائلاً :

- لاحظتها لم يكن لديه الخيار .

وصمت لحظة ، ثم أضاف في صرامة :

- من الناحية النفسية على الأقل .

نطقها ، وعقله يسبح مرة أخرى بعيداً ..

في بحر الذكريات ..

★ ★ ★

عندما انتزع ذلك الحارس الضخم ، الديبلوماسي الشاب ، من
داخل الزنزاة الحفيرة ، في قلب سجن (موسكو) استعداد
ذهن الشاب تلك الصرخات الرهيبة ، التي أطلقها من قبله ،
بعد أن انتزعهم هذا الوحش من الزنزاة ، وتصوّر أن
مصيره لن يختلف كثيراً عنهم ، وخاصة عندما ألقاه
الحارس الرهيب أرضاً ، ورفع قبضته القوية ، و ...

« كفى يا (جوركي) . »

اتطلق الهتاف الصارم فجأة ، لتتجمّد قبضة الحارس الضخم
في الهواء ، قبل أن تهوى على فك الديبلوماسي الشاب ، الذي
استدار بكل لهفة الدنيا إلى مصدر الصوت ؛ ليقع بصره على
رجل ضخم آخر ، في ثياب مدنية ، يقف على مسافة ثلاثة
أمتار منه ، في وقفة صارمة حازمة ، وهو يواصل بلهجة
آمرة قاسية :

- أريده في حجرتي .. فوراً .

قالها ، واستدار يدلف إلى حجرة قريبة ، فانقضّ الحارس
مرة أخرى على الشاب ، وانتزعه من مكانه ثانية ، ودفعه
أمامه إلى حجرة الرجل ، الذي كان يجلس خلف مكتب بالغ
الأناقة ، داخل حجرة فاخرة ، لا يمكن أن يتصوّر المرء
وجودها هناك ، على بعد أمتار قليلة من تلك الزنزاة الرهيبة ..

وفي هدوء بالغ ، أشار إليه الرجل ، قائلاً بلهجة آمرة :

- اجلس .

جلس الديبلوماسي البريطاني الشاب على مقعد وثير للغاية ،
لين إلى حد مدهش ، وخاصة عند مقارنته بلوح الخشب الجاف ،
الذي كان يجلس عليه ، طوال الساعات الخمس السابقة ،
داخل الزنزاة الحفيرة ..

ولديقتين كاملتين ، ظلّ السوفيتي الضخم يتطلّع إليه في صمت ، قبل أن يشير إلى الحارس ، الذي تراجع في سرعة ، وأغلق الباب خلفه في حرص وهدوء ليتركهما وحدهما داخل الحجرة الأنيقة ..

وفور خروج الحارس ، نهض المدني الضخم من مقعده ، والتقط زجاجة من جواره ، وهو يقول :

- أظن هذا مشروبك المفضل .

كانت الزجاجة تحوى مشروبه المفضل بالفعل ، لذا فقد تساءل الشاب في حذر :

- وكيف تعرف هذا ؟!

ودون أن يبتسم الرجل ، قال في شيء من السخرية :

- إننا نعرف كل شيء عنك .

قرن قوله هذا بسيل من المعلومات ، ألقاه في سرعة على مسامع الديبلوماسي الشاب ، الذي فغرفاه في ذهول ، وهو يستمع إلى اسمه الكامل ، وتاريخ أسرته العريقة ، وهواياته ، وانتماءاته ، وحتى رقم هويته البريطانية ..

وبكل ذهوله ، هتف :

- أكان هذا مديراً ؟!

أجابه الرجل في هدوء ، وهو يناوله كأساً من مشروبه المفضل :

- أنت خالفت قانون النقد ، وهناك شهود وأدلة على هذا ، أبسطها أن الأوراق الرسمية تنفى إجراءاتك لأية تحويلات نقدية رسمية ، خلال الأشهر الثمانية الأخيرة ، على الرغم من أنك تنفق الكثير من الروبلات السوفيتية .

وعاد إلى مقعده ، وهو يتابع بنفس الهدوء :

- ومن الناحية الرسمية ، ستجد أن عملية إلقاء القبض عليك ، في ذلك المتجر الصغير ، تم تسجيلها بالصوت والصورة ، وأن وزير خارجيتنا قد أصدر موافقة باعتقالك ، كما تقتضى اللوائح الديبلوماسية ، وكل شيء يسير قانونياً تماماً .

غمغم الشاب في توتر شديد :

- يمكن لسفارتى أن تعرض على اعتقالى .

أجابه الرجل في سرعة :

- بالطبع .. هذا إجراء قانوني تماماً .. سفارتك لها الحق في أن تعرض .. وكذلك دولتنا .. سنرفض اعتراضهم ، وسنبرز كل ما لدينا من أدلة وبراهين ، على ارتكابك جريمة ، نعتبرها هنا خيانة عظمى لاقتصادنا ، ونعاقب مرتكبها ، مواطناً كان أم أجنبياً ، بالإعدام ، وسنستخدم كل ما لدينا من وسائل إعلام ،

وصحف ، ونظم رسمية وديبلوماسية ، وستصبح فضيحة كبرى لك ، ولدولتك .. فضيحة سينتهى معها مستقبلك المهني تمامًا ، وستعود بعدها إلى دولتك ، التي ستبذل قصارى جهدها حتمًا لإنقاذك ، وقد تكلفت بالخزي والعار ، حتى إنك ستفضل الانتحار .

ثم تراجع في مقعده بمنتهى الهدوء ، وارتشف رشفة من كأسه ، مضيفاً :

- وهذا بالطبع لن ينتهى بسرعة ؛ فطبيعة النظم والإجراءات ، التي يتبعها الديبلوماسيون ، هي البطء الشديد ، والروتين المعقد ، وأنت تعلم أن دولتنا تتميزان بهذا وذاك ، والنتيجة أنك ستظل في زنزانتك لشهر أو شهرين .. فقط .

ونفض من مقعده فجأة ، هاتفاً :

- أيها الحارس .

قبل حتى أن ينتهى هاتفه ، افتحم الحارس الحجرة ، قائلاً بمنتهى الغلظة والخشونة والشراسة :

- أوامرك يا سيدي .

انفجرت شفقا الرجل ؛ ليقول شيئاً ما ، إلا أن الديبلوماسي الشاب هباً من مقعده ، بكل توتر الدنيا ، هاتفاً :

- أرجوك .

أدار الرجل عينيه إليه فى هدوء ، فتابع ، وهو يخفض عينيه فى انكسار :

- لا أريد العودة إلى تلك الزنزانة .

وصمت لحظة ، لم يسمع خلالها أى تعليق ، فكرر فى مرارة :

- أرجوك .

تطلع إليه الرجل بضع لحظات ، حتى أيقن من أن لعبته قد أفلحت إلى حد كبير ، فقال للحارس فى صرامة :

- ليس الآن .

تراجع الحارس ، وأغلق الباب خلفه مرة أخرى ، وعاد الرجل يجلس خلف مكتبه ، بنفس الهدوء العجيب ، وقال للشاب :

- اجلس .

أطاعه الديبلوماسي الشاب فى آلية ، وعلى نحو يوحى بالخضوع والاستسلام الكاملين ، فظهر شبح ابتسامة باهتة ، فى ركن شففى الرجل ، ثم لم يلبث أن تلاشى فى سرعة ، وهو يعاود النهوض ، ويتقدم نحو الشاب ، قائلاً فى هدوء :

- الأمريكيون يملئون بلاك ، منذ انتهت الحرب العالمية الثانية .. أليس كذلك ؟!

حاول الشاب أن يكون حذرًا ، بقدر ما أمكنه ، وهو يقول :

- إنهم أصدقاء ، و ...

قاطعته الرجل فى صرامة :

- خطأ .

أطبق الشاب شفتيه على الفور ، فتابع الرجل بمنتهى الحزم :

- الأمريكيون أعداؤنا وأعداؤكم أيضًا ، حتى وإن تظاهروا بالعكس .. انظر ما الذى فعلوه بكم ، بعد نهاية الحرب .. أنسيتم كيف تعاملوا معكم من منطلق القوة ، فى حرب (السويس) ، عام ١٩٥٦ م .. إنهم أعداء لنا معًا .

ثم وضع يده على كتفه ، مستطرذا :

- لذا ، ينبغى أن نتعاون معًا ؛ لننصدى لهم ..

وهنا تصور الشاب أنه قد فهم المطلوب ..

ولكن الواقع أن هدف الرجل الحقيقى كان يختلف ..

يختلف تمامًا .

٦ - الهدف الحقيقى ..

• تراجع رئيس الوزراء فى مقعده ، فى البناء رقم عشرة ، من شارع (داوننج) ، مقر رئاسة الوزراء البريطانية فى (لندن) ، وهو يتطلع فى دهشة ، شاركة إياها مديرا (إم آى - ٥) ، و (إم آى - ٦) إلى نائب الأخير (تيم سيلبى) ، فى ذلك اليوم من بدايات الثمانينات ، مما جعل (سيلبى) يقول بابتسامة هائلة :

- أعتقد أن الدهشة العارمة ، التى أصابتكم أيها السادة ، هى أكبر دليل على إمكانية نجاح خطتى .

هتف به رئيسه فى استنكار :

- أية خطة ؟! هل تتصور أن السوفيت يمكن أن يصدقوا ، أنك من الممكن أن تعمل لحسابهم ؟!

هز (سيلبى) رأسه نفيا ، قبل أن يقول :

- بل سيد هشهم هذا ، وسيستكرونها حتمًا ، كما استكروهم أنتم ، إلا أنهم ، ومهما كان انفعالهم ، سيجدون أنفسهم أمام احتمالين ، لا ثالث لهما ، فإما أننى أرغب بالفعل فى التعاون معهم ؛ لأسباب يمكننا أن نفتعلها هنا ، ونتركهم يعثرون عليها ، فى أثناء بحثهم للتأكد من صحة عرضى ، أو أننى أسعى لخداعهم ، على نحو لا يتفق قط مع أية قواعد معروفة ، فى عالم الجاسوسية ، فلو أنكم فى موضعهم ، أى احتمال كنتم ستميلون إليه أكثر .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة ، قبل أن يحك رئيس الوزراء ذقنه بسبابته ، قائلاً فى بطء :

- بالنسبة لى ، ساميل إلى الاحتمال الأول ، لو تمت تغطيته بالمهارة الكافية ، ولكننى لست أدرى ما الذى سيذهب إليه المحترفون .

مطّ مدير (إم آى - ٥) شفتيه ، وهو يقول :

- بالنسبة لى ، لن أصدق رغبته ، أو أقنع بها بسهولة .

أسرع مدير (إم آى - ٦) يقول فى حماسة :

- وستحاول التيقن منها ، دون أن ترفض العرض .. هذا ما سنفعله ، لو كنا فى موضعهم .

مال رئيس الوزراء إلى الأمام - يسأله فى اهتمام :

- أنت واثق ؟!

أجابه بنفس السرعة :

- ما من جهاز مخابرات ، فى العالم كله ، يمكن أن يضيع فرصة نادرة كهذه .

تردّد مدير (إم آى - ٥) لحظة ، قبل أن يقول :

- بالتأكيد .

نقل رئيس الوزراء بصره ، بين الرجال الثلاثة ، قبل أن يسأل فى اهتمام :

- هل تعتقد أن باستطاعتك خداعهم يا (سيلبى) ؟!

أجابه (سيلبى) فى رصانة :

- سأجعلهم يتصورون أننى إما مجنون أو مخلص تماماً .

سأله رئيسه هذه المرة :

- وكيف هذا ؟!

صمت (سيلبى) بضع لحظات ، وكأنما يعيد ترتيب الأمر كله فى رأسه ، قبل أن يقول فى حزم :

- لن أقدم لهم عرضى هنا .

سأله رئيس الوزراء :

- وأين ستقدمه لهم إذن ؟!

أجابه فى سرعة :

- هناك .

حدّق الرجال الثلاثة فى وجهه بمنتهى الدهشة ، فتابع بكل الحزم :

- فى (موسكو) .

وعلى الرغم من أن الجواب متوقع تمامًا ، فقد بدا وكأنه
قد صدم ثلاثتهم ؛ حتى إن مدير (إم آى - ٥) هتف مستكراً :
- هذا مستحيل !

أضاف مدير (إم آى - ٦) فى قلق :

- أنت تعلم أن النظام يحتم عدم مغادرتك البلاد ، دون
تصريح رسمى ، مادمتم أحد رجال المخابرات البريطانية .

أشار (سيلبى) بسبابته ، قائلاً :

- إلا لو سافرت فى مهمة رسمية .

سأله رئيس الوزراء وكأنما كان يتوقع السؤال :

- مثل ماذا ؟!

أجابه (سيلبى) فى هدوء :

- سنجد ألف سبب وسبباً .

عاد رئيس الوزراء يتراجع فى مقعده ، وهو يتطلع إليه
طويلاً فى صمت ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً فى حزم :

- ابقى يا مدير (إم آى - ٦) .. أريد أن أتحدث إليك
بعض الوقت .. وحدنا ..

كان هذا إشارة إلى مدير (إم آى - ٥) و (سيلبى) بالانصراف ،

ولقد التقطاهما على الفور ، وغادرا المكان ، الذى لم يكدهما يقتصر
على رئيس الوزراء ، ومدير (إم آى - ٦) ، حتى اعتدل
هذا الأخير ، متسائلاً فى اهتمام :

- ما رأيك فى خطته ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

- مجنونة .

ثم صمت لحظة ؛ ليضيف بابتسامة إعجاب :

- ولكنها عبقرية بحق .

وافقه رئيس الوزراء بإيماءة من رأسه ، ونهض من
خلف مكتبه ، قائلاً :

- أهو دائماً بهذه البراعة ؟!

اتسعت ابتسامة الرجل ، وهو يقول :

- نعم .. دائماً .

رَبَّت رئيس الوزراء على كتفه ، قائلاً :

- اتخذ إذن كل الاحتياطات اللازمة ؛ لضمان سلامته ،
فمن الخطأ خسارة رجل مثله :

سأله مدير (إم آى - ٦) فى اهتمام بالغ :

- أيعنى هذا أن سيادتكم قد وافقتم على تنفيذ العملية؟!

ابتسم رئيس الوزراء ، قائلاً :

- بالتأكيد .

وكان هذا أشبه بتوقيع رسمى ..

توقيع على قرار تنفيذ العملية ..

أغرب عملية ، فى تاريخ جهاز المخابرات البريطانية .

على الإطلاق ..

« هل تريد منى أن أجلس على الأمريكين فى (بريطانيا) ؟! »

ألقى الديبلوماسى الشاب السؤال فى حذر على مسامع الرجل الضخم ، داخل تلك الحجرة الأنيقة ، فى سجن (موسكو) ، فى تلك الفترة من منتصف الخمسينات ، فربت الرجل على كتفه فى هدوء ، قبل أن يجلس إلى جواره ، قائلاً :

- ما نريده منك ، هو أن تتعاون معنا ، ضد من نعتبرهم أعدائنا وأعداءكم ، وهذا ليس خيانة لوطنك .. أليس كذلك ؟!

صمت الشاب طويلاً ، وهو يدرس الأمر فى ذهنه ، قبل أن يلقي جوابه ..

ولأن خصمه محترف فى مجاله ، فقد أدرك ما يعانى به ، ولاذ بالصمت ؛ ليمنحه فرصة دراسة الأمر وتقييمه ..

وفى ذهن الشاب ، كانت هناك خطة تتكوّن ..

خطة تعتمد على إبداء موافقته ؛ للخروج من هذا المكان ، والعودة إلى سفارته ، وبعدها يمكنه أن يتصل من كل هذا ، ويعود إلى وطنه سالمًا ..

لحظتها ، ولأنه لم يكن بعد رجل مخابرات ، بدت له الخدعة عبقرية ومتقنة ، على نحو ضاعفه شعور اليأس فى أعماقه ، فاعتدل ، قائلاً :

- أنا مستعد .

كان يتوقع حماسة من الرجل ، إلا أنه لم يحظ بها أبدًا ، فقد ظلّ الضخم هادئًا ، وهو يقول فى بساطة :

- حقًا ؟

قالها ، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة ، على نحو جعل الديبلوماسى الشاب يقول فى عصبية واضحة :

- أينبغى أن أقسم على هذا ؟!

ظل الرجل يتطلع إلى عينيه في صمت ، بضع لحظات أخرى ، قبل أن يجيب في اقتضاب شديد :

- كلاً .

ثم نهض ، واتجه إلى مكتبه ، مضيفاً :

- ولكن ينبغي أن توقع بعض الأوراق ..

واتسعت عينا الشاب عن آخرهما ..

فالآن .. والآن فقط ، أدرك أنه قد تورط بالفعل في هذا المستنقع الرهيب القذر ..

وحتى النخاع ..



٧- الخطأ ..

• ارتسمت ابتسامة باهتة ، على شفתי رجل المخابرات السوفيتي (يوري كارباكوف) ، وهو يطالع البرقية السرية ، التي وردت من (لندن) منذ دقائق قليلة ، ثم لَوَّحَ بها أمام زميله (إيفان جوديسكي) ، وهو يقول :

- أنباء مدهشة من (لندن) .

سأله (جوديسكي) ، في برود :

- أية أنباء ؟!

دس البرقية في جيبه ، قائلاً :

- نائب مدير مكتب المخابرات البريطانية (تيم سيلبي) سيصل إلى (موسكو) مساء اليوم ، في مهمة تفتيشية خاصة ، على السفارة البريطانية هنا .

انعقد حاجبا (جوديسكي) ، وهو يتساءل :

- وما المناسبة ؟!

هزَّ (كارباكوف) كتفيه ، قائلاً :

- هذا أمر روتيني ، يحدث كل حين وآخر ، بحجة التفتيش ،

ولكنه فى الواقع ستار لمراجعة بعض أعمال المخابرات على أرضنا .

اعتدل (جوديسكى) ، يسأله :

- وما دام أمراً روتينياً ، فلماذا اعتبرت أنها أنباء مدهشة إذن ؟!

صمت (كارباكوف) بضع لحظات ، قبل أن يبتسم ، قائلاً :

- إنها أول مرة يرسلون نائب مدير المخابرات شخصياً .

مط (جوديسكى) شفتيه ، وهو يهز رأسه متفهماً ، ثم أشعل واحدة من سجائره ، ذات الرائحة النفّاذة القوية ، قبل أن يسأل ، فى شيء من الاهتمام ، حاول أن يغلفه بغلاف زائف من برودته التقليدية :

- أما زلت تصرّ على عدم إخبارى بهوية جاسوسنا ، فى مجلس قيادة المخابرات البريطانية ؟!

انعقد حاجبا (كارباكوف) وهو يشيح بوجهه فى صمت ، فنفت (جوديسكى) دخان سيجارته فى قوة ، متسائلاً :

- المهم أن تكونوا واثقين من ولائه .

صمت (كارباكوف) لحظة ، ثم لم يلبث أن قال :

- فى البداية كان مضطراً فحسب ، وخاصة بعد أن وقّع بعض الأوراق ، التى تشير إلى أنه كان يعمل لحسابنا ، طوال عام كامل ، وإيصالات تؤكد أنه كان يتقاضى الكثير منا ، مقابل ما يرسله من معلومات إلى مخابراتنا .. بل ولقد جعلوه يكتب بخطه عدة خطابات ، تحوى بعض ما لدينا من أسرارهم .. باختصار .. لقد غادر سجن (موسكو) ، قبيل شروق شمس اليوم التالى ، وقد تورط حتى النخاع .

اعتدل (جوديسكى) فى اهتمام ، متسائلاً :

- ثم ماذا ؟!

ابتسم (كارباكوف) ، قائلاً :

- كان شاباً نابهاً بحق ، ولقد اضطر إلى إرسال بعض المعلومات فى البداية ، وإلى مقابلة مندوبينا سرّاً ، فى قلب (موسكو) ، طوال عام كامل ، خضع خلاله لبرنامج زكى ، لتطوير تفكيره ، وإقناعه بعظمة وقوة النظام الشيوعى .

حاول (جوديسكى) أن يخفى ابتسامته الساخرة ، وهو يقول :

- وهل أفلح هذا ؟!

أوماً (كارباكوف) برأسه إيجاباً ، وقال :

- لا بد أن تعلم أن رجالنا عباقرة فى هذا المضمار ، وأنهم يتعاملون مع مثل هذه الأمور بحرفية عالية جداً ، وببراعة مدروسة ، وتحت إشراف خبراء نفسيين واجتماعيين ، ولقد تعاملوا مع الشاب بنظام محكم ودقيق ، وبعيد المدى أيضاً ، بحيث أصبح يؤمن تماماً بأن الشيوعية هى أفضل نظام ، لكل شعوب الأرض .

غمغم (جوديسكى) ، فى مزيج من السخرية والازدراء :

- يا للسادج !

سأله (كارباكوف) :

- ماذا تقول ؟!

أشار (جوديسكى) بيده ، قائلاً :

- لا شيء .. أخبرنى يا (كارباكوف) ، متى بدأ التعامل معه فى وضوح ؟!

أجابه (كارباكوف) ، وهو يتراجع فى مقعده باسترخاء :

- فور تأكدهم من أنه قد افتنع بالشيوعية ، وأصبح ينتمى

قلبيًا لنظامنا .. عندئذ فقط طلبوا منه التوقف عن نقل أخبار الأمريكيين ، والتركيز على كل المعلومات التى يمكنه الحصول عليها ، من البريطانيين أنفسهم .

سأله (جوديسكى) :

- أكان قد التحق أيامها بالمخابرات البريطانية ؟!

أوماً (كارباكوف) برأسه ، قائلاً :

- بالطبع ؛ فى الفترة السابقة لالتحاقه بها ، وفور علمنا بترشيحه لها ، طلب منه رجالنا إيقاف كل نشاطه فوراً ، وعدم إرسال أية معلومات أو برقيات إليهم ، مهما بلغت أهميتها أو خطورتها ؛ وذلك حتى يتجاوز مرحلة الفحص والمراقبة ، التى تسبق انضمامه الرسمى .

والتقط نفساً عميقاً ، قبل أن يتابع فى جذل :

- ولقد اجتاز كل شيء بنجاح ، وأصبح أحد رجال المخابرات البريطانية ، ونظراً لذكائه ونشاطه الجم ، ولما كنا نزوده به ، من خبرات ومعلومات ، أصبح يتولى ، بعد عامين فحسب ، مسئولية القسم السوفيتى ، فى المخابرات البريطانية ، ثم راح يتطور ويترقى بسرعة مذهشة ، وراحت المعلومات ترد منه على نحو مدهل ، حتى صرنا وكأننا نجلس داخل المخابرات البريطانية نفسها ، حتى أصبح يحتل اليوم منصباً رفيعاً فيها .

لَوْح (جوديسكى) بيده ، وألقى سيجارته ، قائلاً :

- ولكنك لن تخبرنى باسمه .. أليس كذلك ؟!

هزَّ (كارباكوف) رأسه فى حزم ، مجيباً :

- محال .

قالها قبل أن ينهض ، ويغادر المكان كله ، فمطَّ (جوديسكى) شفتيه ، مغمغماً :

- لا بأس أيها الوغد .. ما قلته الآن يكفينى .

وألقى نظرة على ساعته ؛ ليرى كم تبقى له من الوقت ، قبل أن يحين موعد انصرافه من المكان ..

فوفقاً لما لديه من معلومات ، كان عليه أن يرسل برقية شفرية عاجلة ، إلى الجهة التى يعمل لحسابها ، مع كل ما حصل عليه من معلومات ..

إلى المخابرات البريطانية ..

مباشرة ..

لم يكد (تيم سيلبى) يهبط من طائرته ، فى مطار (موسكو) ، وسط البرد القارس ، والجليد المنهمر فى غزارة ، حتى التقط نفساً عميقاً ، من الهواء المثلج ، وغمغم فى هدوء شديد :

- عظيم .. كل شيء يسير على ما يرام .

لم يكن يحمل سوى حقيبة واحدة ، وضعها إلى جواره ، وفرك كفيه ببعضهما ، أو بمعنى أدق ، فرك فقاريهما السميكتين ، وهو يتلفت وحده ، بابتسامة هائلة وثقة كبيرة ..

ومن بعيد ، لمح سائق سيارة سوداء كبيرة ، ذات زجاج داكن مزدوج الانعكاس ، يسمح لمن داخلها برؤية كل ما بخارجها ، دون أن يسمح بالانعكاس أبداً . فقال فى اهتمام ، للرجل الجالس فى المقعد الخلفى :

- أهذا هو ؟!

أوما الجالس برأسه ، مغمغماً :

- نعم .. إنه هو .

ثم ربت على كتف السائق ، مضيفاً فى حزم :

- اتجه إليه مباشرة .

نفذ السائق الأمر على الفور ، واتجه نحو (سيلبى)

مباشرة وتوقف أمامه ، ففتح الجالس في المقعد الخلفى الباب المجاور له ، وقال ، وهو يطل برأسه منه :
- هل ترغب فى الطيران إلى (موسكو) ؟!



أجابه (سيلبى) فى هدوء :

- هذا يتوقف على طول جناحى الطائر .

أفسح له الراكب مكاناً إلى جواره ، قائلاً :
- لن تجد ما يفوق جناحى الرخ .
ابتسم (سيلبى) وهو يتخذ مكانه إلى جواره ، قائلاً :
- أنت المسئول عن الأمر ؟!
أجابه الراكب ، وهو يشير إلى السائق بالانطلاق :
- لقد شرفونى بهذه المهمة ..
وانطلقت السيارة ، والراكب يسترخى فى مقعده ، ويتطلع إلى (سيلبى) فى فضول واهتمام شديدين ..
ولم يكن ذلك الراكب سوى (كارباكوف) ..
رجل المخابرات السوفيتى (يورى كارباكوف) ..
بنفسه .

منتصف الستينات ، ثم التحق بالمخابرات هنا ، فى أواخر الستينات ، وأصبح مسئولاً عن القسم السوفيتى ، فى أوائل السبعينات ، ثم ترقى ليصبح أحد أعضاء مجلس القيادة فى الثماتينات .. افحص الملفات ، وراجع المعلومات والبيانات ، وامنحنى النتائج بأقصى سرعة ممكنة .

بدأ الرجل عمله على الفور ، فى حين غمغم مدير المخابرات فى أسف ، وهو يجرى اتصالاً فورياً ، عبر الهاتف الساخن الخاص ، برئيس الوزراء :

- يا للخسارة ! ليت (سيلبى) لم يتعجل تنفيذ خطته .. ما وصلنا الآن يجعلنا بغير حاجة حتمية إليها .

سمع صوت رئيس الوزراء على الجانب الآخر ، فور إتمامه عبارته ، فقال فى حماسة واضحة :

- سيادة رئيس الوزراء .. لقد وصلتنا بعض المعلومات من (موسكو) .

سأله رئيس الوزراء فى لهفة :

- هل أرسلها (سيلبى) ؟!

أجابه مدير المخابرات :

٨ - العميل السرى ..

● لم تكد البرقية السرية ، التى أرسلها رجل المخابرات السوفيتى (إيفان جوديسكى) ، تصل إلى جهاز المخابرات البريطانى ، الذى يعمل لحسابه ، حتى بدأ قسم الشفرة فى ترجمتها على الفور ..

وكما تحتم الأوامر الأخيرة ، تم إرسال الترجمة إلى مدير المخابرات شخصياً ، والذى طالعها بمنتهى الاهتمام ، قبل أن يقول :

- عظيم .. صحيح أن عميلنا (جوديسكى) لم ينجح فى الحصول على اسم الجاسوس السوفيتى ، وسط مجلس قيادة جهازنا ، إلا أن ما أرسله من معلومات سيفيدنا حتماً ، فى تحديد هويته .

ثم استدعى رئيس قسم المعلومات البديل على الفور ، وناولته نسخة من البرقية ، قائلاً بلهجة أمر صارمة :

- أحضر كل ملفات مديرى الإدارات ، وأعضاء مجلس القيادة هنا ، وراجع كل بياناتهم ، على ما ورد فى هذه البرقية .. إننا نبحث عن شخص عمل فى سفارتنا فى (موسكو) ، فى

- بل أرسلها عميل لنا ، فى قلب المخابرات السوفيتية .. إنها لا تحوى اسم جاسوسهم بيننا ، ولكنها تحوى من المعلومات ، ما يكفيننا لكشف أمره خلال ساعة على الأكثر من الآن .

قال رئيس الوزراء فى اهتمام :

- وماذا عن (سيلبى) وخطته ؟! لم يعد من المحتم أن يجازف بسلامته الآن ، « أليس كذلك ؟! »

أجابه مدير المخابرات فى سرعة :

- بلى يا سيادة رئيس الوزراء .. سأرسل برقية فوراً إلى سفارتنا فى (موسكو) ، أطلب منه فيها إيقاف كل شيء ، والعودة فوراً إلى (لندن) ، فلم تعد هناك ضرورة لـ ...

قاطعه فجأة صوت رئيس قسم المعلومات ، وهو يقول فى توتر :

- سيادة المدير .

التفت إليه المدير فى حدة ، وبنظرة صارمة قاسية ، ولكنه مد يده إليه بورقة واحدة ، قائلاً بكل توتره :

- أظن أنه من الضرورى أن تطالع هذا .

بدا الغضب على وجه المدير ، ولكن الرجل تابع فى إصرار :

- أعلم أنك تتحدث إلى السيد رئيس الوزراء ، ولكن هذا يحتم إطلاعك على هذا التقرير فوراً .

بدا القلق على وجه المدير ، وهو يلتقط التقرير ، فى حين سألته رئيس الوزراء ، الذى سمع ما قاله رئيس قسم المعلومات .

- هل توصل الرجل إلى هوية الجاسوس ؟!

سمع الرجل سؤال رئيس الوزراء بدوره ، فقال فى توتر بلغ أقصاه :

- لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من البحث ، فهناك رجل واحد ، فى مجلس القيادة كله ، يمكن أن تنطبق عليه هذه المعلومات .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان مدير المخابرات يلقى نظرة على التقرير ، ثم تتسع عيناه عن آخرهما فى ذهول ، وهو يهتف :

- مستحيل !

سألته رئيس الوزراء فى قلق شديد :

- من هو يا رجل ؟! من ذلك الجاسوس ؟!

بذل مدير المخابرات جهداً خرافياً ؛ ليخرج من حنجرته صوت متحشرج باهت ، وهو يقول :

- لن يمكنك أن تصدق يا سيادة رئيس الوزراء .. لن تصدق أبدًا من هو الجاسوس السوفيتي .

وكان على حق تمامًا ، فاسم الجاسوس كان بالفعل مفاجأة !

مفاجأة مذهلة !

« صديقنا العزيز (تيم سيلبي) »

هتف مدير المخابرات السوفيتية بالعبارة ، في حرارة وترحاب شديدين ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، ليصافح (سيلبي) في حرارة ، جعلت هذا الأخير يبتسم ، قائلاً :

- خشيت لحظة أننا لن نلتقى ثانية أبدًا ، أيها الرفيق (مكسيم) .

أطلق (مكسيم) ضحكة ، ارتج معها جسده الضخم ، وهو يرتب على كتفه ، قائلاً في مرح :

- أما أنا ، فبعد ربع قرن من التعاون ، أصبحت شديد الثقة ببراعتك وذكاكك ، أيها الرفيق (سيلبي) .

ابتسم (سيلبي) ، وهو يجلس على مقعد قريب ، ويمد قدميه أمامه في استرخاء ، قائلاً :

- كان من الممكن ألا أغادر (لندن) أبدًا ، لولا أن أقنعتهم بخطة وهمية لخداعكم ، فساعدوني على مغادرة (بريطانيا) كلها ، والقُدوم إليكم ، تحت حمايتهم ورعايتهم .

ضحك مدير المخابرات السوفيتي مرة أخرى ، قبل أن يقول :

- ألم أقل لك : إنك بارع وذكي ؟!

تثاءب (سيلبي) ، قائلاً :

- المدير كان يثق بي ثقة مطلقة .

مال (مكسيم) إلى الأمام ، وهو يقول :

- هذا دليل آخر ، على البراعة والذكاء .

تطلع إليه (سيلبي) بطرف عينية ، قائلاً :

- تلميذك النجيب أيها الرفيق (مكسيم) .

أشار الرجل بيده ، وهو يقول مبتسمًا :

- التلميذ الذي تفوق على أستاذه ، أيها الرفيق (سيلبي) .

تنهّد (سيلبي) فى ارتياح ، وقال :

- ما زلت أذكر تلك الظروف ، التى التقينا فيها لأول مرة ،
فى منتصف الخمسينات ، فى سجن (موسكو) .

هزّ الرجل كتفيه ، قائلاً :

- لا بد أن تعترف الآن أنها كانت خطة بارعة .

ابتسم (سيلبي) ، قائلاً :

- لقد أدركت هذا ، بعد عام واحد ، من التحاقى بالمخابرات
البريطانية .

غمز (مكسيم) بعينه ، قائلاً :

- بعد أن أصبحت محترفاً .

تثاءب (سيلبي) مرة أخرى ، وهو يسترخى فى مقعده
أكثر ، قائلاً :

- كم أشعر بالرغبة فى الضحك ، عندما أتصور انفعالاتهم
الآن ، بعد أن يكشفوا الحقيقة .. ولكن فليذهبوا إلى الجحيم ..
لقد وصلت إلى وطنى الحقيقى الآن .

وكانت أقوى صفة تلقته المخابرات البريطانية ، فى تاريخها

كله ، حتى إن العالم كله قد تحدّث عنها باتبهار وأسف ،
فور أن أعلنت المخابرات السوفيتية أن (تيم سيلبي) قد
طلب حق اللجوء إليها ، وتم منحه حق المواطنة ، ليصبح
مواطناً سوفيتياً ، يحمل وساماً من الرئيس السوفيتى ؛ بعد
أن كان نائباً لمدير المخابرات البريطانية ..

و(تيم سيلبي) هذا ليس اسمه الحقيقى ، ولكنه يحمل
الإيقاع نفسه ، ولقد أصبحت عملياته إحدى علامات تاريخ
المخابرات ، بعد أن استقرّ فى الاتحاد السوفيتى ، وأعلن أنه
سعيد بوجوده فى وطنه الحقيقى ، الذى يعتنق مبادئه
وأفكاره ..

ولكن (سيلبي) كان مخطئاً تماماً فى ظنه هذا .

فهما قال أو فعل ، سيظل فى نظر البريطانيين
والسوفيت مجرد بريطانى ، خان وطنه وأمتّه ، من أجل
وطن آخر ..

ولقد تلقى هو نفسه صفة قاسية ، مع سقوط الاتحاد
السوفيتى ، وانهيار الشيوعية ، وتفتّت الكيان الكبير إلى
عدة كيانات صغيرة ، لم يمنحه أحدها ربع الاهتمام ، الذى
كان يحاط به ، فى الاتحاد السوفيتى القديم ..

وهكذا ، وعلى الرغم من كل ما فعله ، كُتِبَ على (تيم سيلبي)
أن ينهى حياته باهتًا منسيًا ، فى قلب كيان منهار ..

وفى قلب العدو ، الذى ربح عدة جولات ، ثم حمل فى
النهاية لقبًا بغيضًا ..

لقب الخاسر ..

إلى الأبد ..

تمت بحمد الله



د. نبيل فاروق

٢٠٠٣/٥/١

روايات مصرية الجيب

حرب الجواسيس

قلبي لعدو

وموضوعات أخرى

صراع العقول
الذي يتفوق
دوما على أمتي
الأسلحة والمعدات

صفحة

محيط الدم (قصة واقعية) ٥

مذكرات رجل مخابرات :

٢ - معلومات .. معلومات ٢٣

العائلة المسمومة (من قصص الصراع العربي الإسرائيلي) ٤١

حرب المعرفة :

٣ - الصراع النووي (ج ٢) ٥٩

ماذا تقترح ؟! ٧٥

من ملفات الجاسوسية العالمية :

(قلب العدو) ٧٧

سين ... و جيم ١٥١

التمن في مصر ٢٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

